1

التّميميّ

obeikandl.com

obeikandl.com

التميميّ

محمد جربوعة

محمّد جربوعة

التّيمي

رواية

obeikandi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

obeikandi.com

الحلقة الأولى

المشهد الأول:

بردتْ شمسُ المساء واصفرّ لونها ، على هذا الحي المنثورة خيامُه في سفح هذا الجبل الأحمر ..

والمساء سيَد الأوقات عند البدو وأهل الصحراء .. فهو أوان الانبعاث من قيلولة الظهيرة التي تفرضها الرمضاء.. بما يعنيه ذلك من طقوس مجالس النميمة عند النساء وهن يغزلن الصوف أو يطعمن صغار الضأن والماعز ..

في العصر تتنفس الصحراء .. وتهبّ النسائم المنعشة التي تبعث في القلوب ذكرياتها ، تهب آتية من ديار نائية وأحياء بعيدة..

هو ذا حيّ (هوازن) وهي ذي (بارعة بنت أصهب)،امرأة ثلاثينية حسناء ، ترمّلت بعد وفاة زوجها التميمي (بارق بن الحُباب)، فتركت حيّه

obeikandi.com

وقومه ، عائدة إلى حيّ قومها ،مع ابنها الوحيد (جميل)..الذي غلب عليه في دار أخواله لقب (التميميّ) ، فصار لا ينادى ولا يُطلب إلا به ..

وكعادته في ما تسميه أمه (جنونا) ، فقد كان الصبي التميميّ جميل ، في تلك الساعة ، في طرف من الحيّ، يتدرّب على القتال..ويُظهرُ من شراسة المقاتل وبأسه وهو لم يتجاوز التاسعة عشرة من عمره ، ما لا يظهره الفرسان المتمرسون الذين يفوقونه سنا ..

ولعله لانهماكه في ملاعبة سيفه في معركة وهمية يصنعها خياله ، لم يلتفت إلى أمه إذ حضرت تطلبه ..ولعلها وهي التي تعرف انتشاءه بفنون القتال، لم تشأ أن تصرفه عما كان فيه من متعة واهتمام، فراحت تراقبه في ابتسامة صافية حانية ، ملؤها الفخر والأمل الكبير..ولعلها كانت في تلك اللحظات تسترجع بصورته صورة والده، زوجها، (بارق بن الحباب)، الذي اختفى منذ تسع سنوات في معركة

ضدّ الفُرس..وقال قومٌ إنه قضى ، وقال آخـرون ، بـل أُسِرَ.. والأمر سيّان،فالأسير لدى فارس كالميّت..

ولم يكن من الممكن أن تطيل بارعة مكثَها هناك في مراقبة ابنها الذي تكاد متطلبات الفروسية تذهب بعقله ، فاقتربت منه تخاطبه :

- وحق اللّه مجنون كأبيك ، وفي عينيك مثل ما في عينيه..

وردّ عليها الفتى بمكر :

- وهل كنت تنظرين إلى عينيه كثيرا ؟

ولبسها من الارتباك ما يلبس النساء عادة حين تفتضح عواطفهنّ ..فراحت تضربه على كتفه ضربا خفيفا وهي تقول :

- وماكرٌ كمَكره أيضا ..

فيقول:

- ومن شابهَ أباه فما ظلم..

obeikandil.com

وسـارا نحـو خيمتهمـا ، بينمـا عـلا صـوتٌ جميـلٌ لراعي إبلٍ بالقرب:

يا نائيَ الدار،أودى الشوقُ بي، فَعُدِ
يكفي بربّكَ..قدْ أبلى الهوى جَسَدي
والشوقُ يصبحُ بعد العامِ ساقيَةً
تُطمّعُ القلبَ بعد الماء بالزّبدِ
ما زلتُ أحفظُ رغم البُعد حبّكمو
عهدا ،وأمسكُ ما خلّفتمو بيدي

وكضوء نجم ينأى ويضمحلّ ، متلاشيا في السماء مـع الفجـر ، يتلاشـى المـوّال الحـزين ، ويختفـي الطيفان بين خيام الحيّ .. بينما الشمس تواصـل رُسُـوّها الآسـر نحـو شـواطئ المغيب،كسـفينة ضوئية من سفن الأساطير..

obeikandl.com

المشهد الثاني :

خرجتْ الرباب بنتُ شيخ حيّ هوازن مع بعض صويحباتها لجلب الماء من نبع قريب..وجلب الماء لصبايا الأحياء مناسبة لتبادل الأخبار وإفشاء الأسرار ، وللنميمة النسوية الجميلة ، التي لا تكون الصبايا جميلات إلا بها..

ورغم أنّ (الرباب) لم تتجاوز عامها السادس عشر ، إلا أنّ عُمرَ بديهة الأنثى ومكرها فيها،أكبر من ذلك بسنوات .. وكما حاز والدها (حييّ بن عوف) فضل مشيخة الحيّ ، فقد حازت هي فضل الجمال ، فكانت بحقّ أجمل بنات حيّها.. وكانت رغم حداثة سنها تدرك ذلك، وتعرف فِْعلَ جمالها في العيون والقلوب ..ولعل ذلك ما جعلها متفاخرة متدللة، شامخة الأنف.. فيها من أخلاق اللبؤات الكثير.

oudeikanai.com

غيـر أنّ شراسـتها تلـك ، لـم تكـن سـوى غـرور ظـاهريّ يجتهـد فـي إخفـاء بحـر مـتلاطم مـن العواطف الجميلة والأحلام الوردية الهادئة..

وبنـــات البـــوادي يـــبلغن مبـــالغ الأنوثـــة صغيرات،وتتلبّسـهنّ الصـحراء بكـل مـا فيهـا مـن متناقضـــات الجنـــون والعقـــل ، والثـــورة والهدوء،صغيرات..

وكانت الرباب تُظهر تجاه التميميّ من العواطف ما لا يستطيع المرء تحديده ، أهو الكُره أم هـو الكِبْـر والفخـر ، أم هـو مكـر الصـبايا الـذي قيـل عنـه (يتمـنعن وهـن الراغبـات) ، إظهـارا للامبـالاة لاستمالة قلب مَن يميل القلب إليه..

غير أنّها ، ربما لصغر سـنها ، كانـت تـذهب بعيـدا في أمرها ذاك ، لدرجة أنها كانت تسمي التميمـي أحيانا بالغريب .. وكان ذلـك يفعـل فيـه مـا تفعلـه الشتيمة في روح الحرّ..خدشا وإيلاما..

ولم يكن حديث البنات والصبايا المبكّرات إلى نبع الماء مع الرباب في تلك الساعة ، سوى التميميّ الغريب ..وقالت صبية :

- لا تنكرن أن لا أحد من فتيان القبيلة في مثل وسامته وفروسيته واعتداده بنفسه ..

لتردّ عليها الرباب :

- إن لم يكن في فتيان الحيّ من يجاريه، ففي بنات الحيّ من تفوقه..ثمّ ما الذي تعِبنه على ابن عمّي (وثّاب) ، وهو الشاعر الفارس الجسور المقدام؟

ولوت جيدها ، مغمضة عينيها ،رافعة حواجبها في غرور.. وفي ثغرها ابتسامة مكر وتحدّ ..

وتغامزت مرافقاتها ، وهن اللواتي لم يكنّ يخطئنَ مقصودها من كلامها ذاك ، وهنّ أعرف الناس بها وبما يثيره فيها ذكْرُ التّميميّ من زوابع..

obeikandl.com

كان الصباح صافيا رقيقا لطيفا منعشا .. ولم تكن الشمس قد ارتفعت على حاجب الأفق سوى مقدار قوس .. وفي ألوانهنّ الزاهية كانت البنات،يصنعن عرسا من الفرح والمرح ، وهنّ يحملن جرارهنّ إلى النبع ..

من بعيد كان ابن عمّ الرباب ، واسمه (وثّاب)،فتى في العشرين من عمره ، يراقبها بعينيْ صقر جارح ، وهو يقول لنفسه، دون أن يتوقف عن دهن بطن بعير مريض بالقار:

- تبا لها ..ألا تدرك هذه المتعجرفة أنّ ضحكاتها هذه المتعالية ومرحها ، يثيران غيرتي ويشعلان نيران قلبي ؟ أليست تعي رغم كل تلميحاتي ما أكنّه لها ؟

لمّا رآها..اشتهى نظراتها.. جُنّا
كأنّهُ راهبٌ بعد الجفا حنّا

obeikandl.com

فقام يرقبها، يُمنى بأضلعهِ

تُطفي اللهيبَ ،ويُسرى تقرع السنّا

وكاد يصرخُ: ما ذنبي؟ وما انقطعتْ

فيكمْ مودتنا يوما، ولا خنّا

إن لم تكونوا لنا في العمر وردتهُ

لا كانَ عمرٌ لنا يوما ولا كنّا

إذا مررتُمْ فداوونا بنظرتكمْ

ولا تشيحوا بوجهٍ فاتنٍ عنّا

فليس من عدلكم أن لا يكون لنا

منكم سوى صوت عِقد الجيدِ إن رنّا

ثمّ يعود وثّاب ليبتسم في دهاء وهو يقول :

– لكنّ الحقّ، أنّ غرورها الجميل المتمرّد يزيدني شعورا بحظي أمام أقراني وخلاني ، وقد ظفرت بما لم يظفر به أحد منهم ، كونها

obeikandl.com

ستكون لي حليلة ، وأنا أحق الناس بها في ذلك..

ولعلّ الفتى نسيَ نفسه ، فما انتبه إلا وهو يدهن ثوبه بالقطران ، بدل البعير .. وانتفض مذعورا ، يضحك من نفسه ، وهو يقول :

- ما تركت لي قلبا في صدر ، ولا عقلا في رأس..

وراح ينفض ثوبه مما دهنه به من قطران ..

بينما بلغت الصبايا النبع ، ورحن يمرحن برشّ بعضهن بالماء ، متعالية ضحكاتهن وصرخاتهنّ..

وارتفع صوت راعٍ في سفح الجبل الأحمر ، يردّد مطرّبا بصوت بدويّ آسر:

شرقَ المنازلِ ، بين السفح والوادي

بكّرنَ يا حاديَ الصحراءِ يا حادِ(ي)

قل للظباء على ماءٍ حللنَ به

ورحنَ يشعلنَ نيرانا بحسّادِ

obeikandl.com

وقد أثرتنّ صيادي الظباء ألا
تخفنَ – مِن خلف تلٍّ- سهمَ صيّادِ ؟

المشهد الثالث :

في خيمتهما ، قالت بارعة وهي تراقب ابنها وهو يعدّ عدته للخروج إلى الصيد ، واضعا السهام في كنانة،ممتحنا وَتر القوس بيده ، ملمّعا نصل الرمح بخرقة..:

– كنْ حذرا يا بنيّ ..

فيجيبها : من الوحوش أم من البشر ..؟

قالت : من كليهما ..

قال : ومن البشر نسائهم أم رجالهم ؟

قالت وهي تبتسم : من كليهما ..

قال : أمّا الوحوش ، فأنا صائدها الذي يعرف طباعها ومكامن قوتها وضعفها .. وأما الرجال فأنا

obeikandl.com

الخبير بما يقولونه صمْتا ونطقا..وأمّا النساء فلا آبه بهنّ ولا يعنيني أمرهنّ ، شرا كان أم خيرا ..
وابتسمت بارعة فرحا بهذا الفتى الذي تثق - رغم خوفها عليه – في رجاحة عقله وحدة ذكائه وتقديره ، وفي قوته وبأسه..وقالت:

– ألا أعلّمك شيئا ؟

قال دون أن يتوقّف عن معالجة بعض ما يحتاج إليه في رحلة صيده:

– لا يستغني مثلي عن خبرة مثلك ، فهاتي ..

قالت :

- احذر من النساء أكثر من حذرك من الرجال بستين ضعفا ..

ولعله استغرب هذا المنطق ، فقال مندهشا وقد أقبل بوجهه عليها مهتما ومستوضحا :

- هذا علم كبير ، فهاتي ..

قالت وهي تربط صرة زاده :

obeikandl.com

- يقال إنّ الرّجل يولد ومعه ستّون شيطانا .. بينما تولد المرأة ولا شيطان لها.. وفي كل عام يمرّ عليهما ، يُنقص من شياطين الرجل شيطان ،ويضاف إلى المرأة شيطان، وهكذا إلى أن يبلغا الستين ..

قال جميل:

- فإذا بلغا الستّين؟

قالت والدته:

- إذا بلغا الستين انعتق الرجل من جميع شياطينه، وسهُلَ صلاحُه ..بينما صار للمرأة ستون شيطانا..

وضحك جميل لهذا الرأي.. وهو يقول :

- هذا يعني أنّ معي الآن أربعين شيطانا.. وأنت ليس معك سوى سبعة وثلاثين شيطانا .. فكيف يمكن لمن كان لها هذا العدد القليل من الشياطين ، أن تخاف على رجل مثلي تعشش

oubeikandl.com

الشياطين في جيوبه، وتتعلّق بثيابه من كل جهة.. ؟

وزاد وهو يستدير استدارة خيلاء :

- ولعلّ والدتي الكريمة قد نسيت أنني من بني تميم ، وأنّنا قوم يقال إننا لسنا من البشر ، بل من أبناء السعلاة والجنّ ، وإن وادي عبقر ليس سوى حيّ من أحياء تميم..

وابتسمت بارعة وتبعته بصرة الزاد خارجا ..

لقد كبُر أمام عينيها ، لحظة لحظة ، ومع الأيام كان يزداد وسامة وعقلا وقوة .. وزاده الشِّعر سموّ أخلاق ورقة طبع ، فكان فارسا عربيّا كأفضل ما يكون الفرسان هيئة ومخبرا ..

حين اعتلى جميل سرج فرسه بوثبة فارس متمرس، وانطلق نحو الفجاج مثيرا من النقع ما يجعله مجرد طيف لا يستبين الناظر إليه ملامحه..كان الفتى يردّد مع ضبح جواده:

أهوى القفارا .. وأهوى الرميَ والصيدا
وأعشقُ الضّربَ في الصحراء والبعدا
وليس يكبرُ عندي فارس أبدا
إن لمْ يقاتلْ وحوش الأرض والأُسْدا
ومن أراد نجوم الليلِ في يده
لا بدّ أن يرعب الآساد لا بدّا

وغـاب الفـارس عـن عينـيْ والـدة كانـت تراقبـه وفـي ثغرها دعوات خضراء حارة صافية رقيقة..

obeikandl.com

obeikandl.com

الحلقة الثانية

المشهد الأول :

بعد غياب يومين.. وعائدا من الصيد ، كان جميل محمّلا بالطرائد ، يجرّ حصانُهُ أسَدا ميتا ..

كانت الشمس تنحدر نحو المغيب ، وهرع أطفال الحيّ يستقبلون التميميّ بفضول، بينما وقف رجال ونساء أمام خيامهم يراقبون المشهد المهيب..

وكجنديّ منتصر عائد من المعركة ، بكل ما عليه من علامات الحرب ، دخل التميميّ خيمته ، غير ملتفت إلى أحد .. وتلك عادته التي تجعل الكثيرين يرمونه بالغرور ..

ولعلّ تلك كانت مناسبة لمعاذة ، الأخت الصغرى للرباب ابنة شيخ القبيلة ، لتقرص ذراع الرباب،وهي تقول في استفزاز مكشوف :

obeikandi.com

- ((ما شاء اللّه .. فارس من ذهب على سرج من ذهب..ليت ابن عمّنا وثّابا كان كهذا يا أختاه))..ثمّ تنهّدت وزادت : ((لا يجرّ أسدا إلا أسد))..

والتفتت إليها الرباب ، تتأملها بنظرة شزراء حادة،وهي تقول وقد أدركتْ ما تعنيه أختها:

- كفّي أيتها المزعجة ، فلا شيء يجعل هذا يفضلُ ابن عمّنا ..إلا هذا الغرور الممجوج الذي يتلبس هذا الغريب من مفرق شعره إلى أخمص قدميه ..أولم يقولوا : (الغريب أعمى ولو كان بصيراً) ؟

معاذة:

- بلى ..قالوا .. لكنّهم قالوا أيضا : إنّ الحبّ أعمى ، لا يرى كل هذا ..

ودنت الرباب بوجهها من وجه أختها ، وغرزت عينيها في عينيها تخيفها وتزجرها ..

obeikandl.com

فردّت عليها أختها :

- وقالت العرب أيضا : (برّقي عينيك لمن لا يعرفك) ..

ثبّتي عينك في عيني وصارحيني .. ألا يليق به الغرور ؟ أليس هذا الغرور هو الذي يحرق قلوب صبايا هذا الحيّ ،ويريق من دموعهن على وسائدهنّ ليلا أنهارا؟ ومنهنّ أنت ؟ أم تظنينني لا أعرف ..؟

وقاطعتها الرباب..وبينما هربت معاذة ضاحكة،لحقت بها أختها الكبرى غاضبة تزمجر،وهي تقول: ((هذا أوان قطع لسان الفتاة إن كان طويلا..))..

وغابتا راكضتين..

المشهد الثاني :

أحدُهما غادٍ والآخر رائحٌ ، تقاطعَ جميل التميميّ بين خيام الحيّ مع كاسر ، ابن شيخ القبيلة .. وككل مرة

obeikandl.com

عندما يتقاطعان في طريق ، تكبر فـي رأس التميمـيّ فكرة مجنونة ، لكنه يعـود ليبـردَ جمرهـا حـين يفكّـر فــي أنّ أدب الضـيافة يسـتلزم مـن مثلـه أن يقابـل الإساءة بالإحسان.. خاصة وأنّ شيخ القبيلة ، حيي بـن عوف ، كان محبا للتميمي منصفا له حانيا عليه،طوال سنوات إقامته في حيه..

وطـوال سـنوات ، كـان كاسـر بـن حيـي ، كلمـا قابـل التميميّ في طريق ، أشار إلى منكبه ..وكان التميمـيّ يتجرّع غضبه ويمضي غير ملتفت .. إلا أنه اليـوم قـد ردّ عليه التحية، بما أشعل نارا في صدر كاسـر .. فمـا كـاد كاسـر ينـزل يـده بعـد الإشـارة إلـى منكبـه ، إلا والتميمـيّ يمـدّ يـده إلـى خصـره مشـيرا إلـى مقـبض سيفه .. وكانت المرة الأولى التي يفعل فيها ذلك،ولم يكن ذلك ليمرّ مرور الكرام ، وكاسر يعرف اليوم جيّدا من هو التميميّ وما فروسيته وقوتـه ..وذاك مـا أفـزع طيورا كانت آمنة على أغصان قلبه ..

في خيمتهما .. فاجأته والدته وهو يتأمّل الوسمَ الـذي في منكبه .. وكثيرا ما كان يفعل ذلك ..ولهذا الوسـم قصة حفرت في قلبه وفي ذكرياته عميقا ..

كان حينها في الثانية عشرة عن عمـره ،حـديثَ قـدومٍ إلـى حـي أخوالـه هـذا ..وبينمـا هـو يلعـب مـع بعـض الصبيان ، اصـطدم بكاسـر، ابـن شـيخ القبيلـة ،الـذي يكبره بسبع سنوات.. وما كان من هذا الأخيـر ، وكـان حينها يسم إبل أبيه بالنار ، إلا أن أخذ الصبيّ الضـيف ووسمه على منكبه مقهقها..

ومــن يومهــا ظلّــت قصــة هــذا الوســم تكبــر مــع التميمي،وتزداد مع السنين إيلاما لأحاسيسه ..

إنه يغمض عينيه الآن ويسـتعيد تلـك اللحظـات التـي أحسّ فيها بحديدة الوسم ، تشوي منكبه الطـريّ..مـا زال صوت قشقشة لحمه يتردد في سمعه..

ولقد قضى سنوات يرى هذه الحادثة في منامه بعد ذلك ، فيقوم من نومه مذعورا ..ولعلّ ما حدث له اليوم قد زاد في استذكاره لها..

واقتربت منه والدته بارعة ، وهي تقول بعينيها الحانيتين العطوفين، أكثر مما تقوله بلسانها:

- هوّن عليك يا جميل ، وانسَ ..

فيردّ عليها مغاضبا:

- لا ينسَى وسمَه غير بعير يا أمّي.. لا ينسَى وسمَه غير بعير.. أفتراكِ يا حبيبةُ قد نسيتِ أنّي من بني تميم ..أنسيتِ قول دغفل بن حنظلة الشيباني : (بنو تميم حجر أخشن ، إن صادمْتَه آذاك)؟

وتردّ والدته :

- لم أنسَ أيها التميميّ العنيد الذي يزداد جمالا حين يغضب ويعقد حاجبيه .. لم أنسَ.. غير

أنه لا قِبَلَ لك بكاسر وهو في داره ومنعةٍ مِن قومه ..

وابتسم التميمي ابتسامة من جانب فمه ، وهزّ رأسه .. وعرفت أمّه بعض ما يدور في رأسه.. ولم تبذل جهدا في إثنائه عن رأيه ، أو إقناعه برأي آخر، هي التي تعرفه جيّدا حين يتلبّسه الإصرار..

ولعله قال في نفسه :

أنا التميميُّ ..إبن الشمسِ يا أمّي

وأنتِ أدرى – رعاك اللّه- مَن قومي

إذا اكتويتُ ، تعيش النار في أبدا

وإن ظُلِمتُ فمرٌّ علقمٌ ظلمي

أنا التميميُّ..لا أنسى أنا أبدا

وإن رُمِيتُ أنا لا بدّ أن أرمي

جوفي البراكينُ، إن ثارتْ يثور دمي

أبي الجنونُ ، وسيفي في الوغى عمّي

المشهد الثالث :

كان من عادة شيخ الحيّ، الشيخ حييّ بن عوف ، أن يعقد في بعض العشيات جلسة في خيمته ، يحضرها الأعيان ، ويحفّ بالخيمة حينها الفتيان ، بينما تجلس النساء غير بعيد منها ، يتابعن أحداثها..ويسمرن أوّل الليل على ما يروى فيها من حكايات وأخبار وما يقرأ من أشعار وما يُناقش من أمور أو يفضّ من نزاعات أو يعلن من آراء وقرارات ..

وقد توسّط الشيخ حيّي المجلس ، مفيضا من هيبته ووقاره على الحضور .. وكان مما قال:

- وهذه قبائل العرب وأحياؤها حولنا ، وما فيها إلا غريم نائم على ثأر، أو متربّص يبطن الأحقاد ويتحيّن الفرصة للانقضاض...وذاك ما يستدعي منا الحيطة والحذر ، ومما يؤسف له،أنّ الفُرسَ يجدون في واقع هذه الصراعات بين أبناء العمّ ، ما يتقوون به ويهيمنون ..

وقد خاض القوم بعد ذلك في أحاديث عدة،شرّقوا فيها وغرّبوا .. وعلى العادة السائدة فيهم، كان لا بدّ أن ينتهي المجلس ببعض المبارزة .. استكشافا للناشئين وترويحا عن النفوس..

ولم يكن جميل ليظنّ أن الشيخ قد ينتدبه للمبارزة ، لكنّ ظنه ذاك قد خاب ، حين سمع الشيخ يقول بصوته الجهوريّ العميق، وهو يميل بوجهه إليه:

- أمع جميل سيفه أم أنه يخاف إن برز للطعان أن تطير به العنقاء ؟

وردّ التميمي وهو يثب واقفا:

- بل معه سيفه ، يا شيخ..

وأحست والدة التميمي ، كالطعنة في قلبها .. وأسرعت بيمناها إلى فمها تكتّم روعها..بينما مال الناس بعضهم على بعض يتهامسون..

obeikandl.com

وقال شيخ الحيّ ، وهو يشير إلى أحد فتيان الحيّ ممن انتشر ذكرُ شجاعتهم وبأسهم :

- أأنت أهل لمبارزة جميل يا أدهم ..؟

وما كاد أدهم يقوم ، حتى قال جميل :

- إذا أذِن لي سيّد القوم ، فإني راغب أكثر وأشدّ بمبارزة الكاسر..

وضجّ المجلس وسرت فيه همهمات ، سرى مثلها في النساء اللواتي يراقبن المجلس في الظلام .. أو من خلال مَطلّات خيامهنّ..وقال شيخ الحيّ، وهو يبتسم بسمة استغراب:

- أألكاسر ولدي لا غيره .. ؟

ويجيبه التميمي :

- الكاسر ولدكم يا سيّد القوم وما قصدتُ سواه .. فإن شرّفني سيّد القوم بهذا ، كنت له مدينا طول عمري..

obeikandi.com

وزادت همهمات القوم ، وضجّ المجلس ضجيجا بما تداخل من كلامهم المبهم الخافت..

وقطع شيخ الحيّ ذلك بقوله :

– لا تشفع للمرء نسبة إلا إذا زانتها نسبته إلى المروءة والفروسية.. والكاسر منا حيث يعلم الجميع ، وقد آن له اليوم أن يستكمل ذلك بإعلامه القوم بموقعه من شرف الفرسان وعزمهم..

وصاح أحدهم يقول :

- هذا أمرٌ لا تبرُكُ عليه الإبل، ولا يصبر عليه ذو أنفة..

وما كاد الصائح ينهي قيلته ، حتى هبّ الكاسر واقفا يتحسس سيفه ..وهو يدرك ما الذي أراده خصمه التميميّ..

كان فارق السنّ بين الفتيَيْن يجعل من المسلّم به أن تكون الغلبة لابن شيخ الحي، الذي بلغ سنته

o b e i k a n d l . c o m

السـابعة والعشـرين ، بينمـا لـم يتجـاوز التميمـيّ عامه العشرين..
ودار الفارسـان حـول بعضـهما ..وتـناوشـا ..وقعقـع السـلاح .. وحُبسـت الأنفـاس .. وكانـت والـدة التميمي تراقب المبارزة الشرسة ويدها على قلبها .. وفـي ثغرهـا دعـاء كثيـر .. بينمـا وقفـت الربـاب تعصـر أصـابعها فـي تـوتّر بـادٍ ، مستبشـرة بهـذه الفرصة التي سيكسر فيها شقيقها الكاسـر غـرور هـذا التميمـيّ الـذي طالمـا أحـرق أعصـاب صـبايا وفتيان الحيّ بغروره الشديد وصمته القاتل..
ومالت أجساد الناس ، وضربت القبضـات بـالأكف.. ودارت العيون في المحاجر..وتصبّب عرق كثير من جباه كثيرة ..وأخذت الظنون قلوب الحاضرين كـل مأخـذ ..ومـا هـي إلا لحظـات حتـى طـرح التميمـيّ خصمَه ، بعد أن رسم له على منكبه جرحا ..

وفهم الكاسر معنى ذلك ، كما فهم معناه من الحضور من كان يعرف قصة الوسم الذي يحمله التميمي على منكبه ..

ودون أن يلتفت إلى أحد ، وكعادته في الصمت والاعتداد بالنفس، أغمد التميميّ سيفه ، واستدار قاصدا خيمته .. دون أن يبدو على وجهه شيء من نشوة أو شماتة .. وتبعته أمّه تجري ، وهرع الحاضرون إلى الكاسر..بينما شيخ الحيّ لم يبرح مكانه ولم يتحرك من مجلسه .. دون أن يبدو على وجهه هو الآخر شيء من حزن أو اضطراب أو حسرة..

obeikandl.com

obeikandl.com

الحلقة الثالثة

المشهد الأول :

سرى نبأ المبارزة بين التميميّ والكاسر في الحيّ،وفي الأحياء المجاورة سريان النار في الهشيم أوان ريح.. تناقله الراكبون وسمر عليه السامرون وكان حديث مجالس الرجال والنساء..

أمّا التميميّ فلم يأبه للأمر بعد ذلك، ولم يخض فيه مع أحد ..إلا مع والدته التي زاد خوفها عليه ، وقالت له في تلك الليلة ، بينما ريح شديدة تهزّ أركان الخيمة هزا :

- أعرف جيدا ما دعاك إلى ذلك ..لكن ما كان لك أن تفعل ما فعلتَ ..

وردّ عليها :

- ألِأنّ الغريب لا يجوز له أن ينتصر بعد ظلم ؟

قالت:

obeikandi.com

- نحن ضيوف هنا يا بنيّ ، ثمّ إنّ خصمك في داره وقومه ، وقد يستعدي عليك من أهل السوء من يُلحق بك شرا ..

قال التميمي :

- ليست الدار هي التي تعزّ أو تذلّ يا أمّاه .. المعز والمذل هو اللّه تعالى ، يعز من يشاء ولو كان غريبا نائيا مفردا ، ويذل من يشاء ولو كان في داره وقومه..

قالت البارعة :

- ونِعْمَ باللّه ..غير أن واجبك في الحذر الآن يتضاعف ..فكن على حذر يا بؤبؤ عيني .. ففي عيون الكاسر نار غدر ، وفي كبده عليك سواد.

واقترب منها يقبّل جبينها ، ويقول مبتسما :

- وغيره كثيرون من سود الأكباد صُهْبِ السبال ..لكن ..كما تقول العرب: (لا تُعلميني بضبّ فأنا حرشته)..

وابتسمت والدته وهي تقول :

- أنت حرشته ؟ وكيف فعلت ذلك وأنت أصغر منه بسنوات طوال ؟

ليرد ، وهو يتأمل سقف الخيمة التي تزلزلها الريح:

- لا عبرة بالسن يا أمّ جميل ، لا عبرة بالسنّ .. وعند الرجال الرجالِ أفْضل أن يقال (مات رحمه اللّه) من أن يقال (فرّ أخزاه اللّه) .. ولا أظنّ أنّ ما حدث للكاسر الليلة بالهيّن..

كان ذلك حديث الأمّ وابنها تلك الليلة ، بينما كانت الريح تحاول اقتلاع خيمتهما..

المشهد الثاني :

صاحت ديكة الحيّ .. ودبت الحياة فيه بعد ليلة باتت الريح فيها تعنّف الخيام ، محاولة اقتلاعها .. وقد نام الناس ليلتها على صورة التميميّ وهو

obeikandl.com

يطرح الكاسر أرضا ، وهم يستيقظون اليوم على ذلك ..

وما إن خلعت الصحراء عنها عباءة الليل السوداء،وفشا فيها الضوء فشوّ الشيب في الشعر،حتى عاد الناس إلى سيرة تلك المبارزة ، يزيدون فيها وينقصون منها ..على العادة الجارية في تناقل الأخبار والتحديث بها..

وهي ذي حسناء الحي،الرباب ، بنت شيخ الحيّ،شقيقة الكاسر، تلتقي بعض صبايا الحيّ على النبع ، وتسمع من الهمس ما طيّر حِلمها وعبث بأناتها..

واقتربت من إحدى صويحباتها تسألها :

- وماذا يقلن ؟

لترد عليها :

- لا عليك .. إنما هو حديث نساء ، والنساء غازلات حديث كما تعلمين ، فلا تهتمي ..

obeikandi.com

قالت الرباب مستشيطة :

- بل يهمني أن أعرف ..

وما كادت النسوة يرينَ الربـاب حتـى أقـبلن عليها يسـألنها متصـنعات أو صـادقات ، عـن حـال أخيهـا الكاسر .. وكـان ذلـك مـدخلَ بعضـهن المـاكرِ إلـى الحديث عن المبارزة.. وقالت إحداهنّ :

- الكاسر فارس الحـيّ ، ولا يُنقِصْه أن لـم تـؤاتِ الريحُ سفُنهُ في مبارزة..

لتضيف أخرى:

- عجبي من هـذا التميمـيّ الـذي تعـزّز بعـد ذلّ ، وصار ذراعا بعد أن كان كراعا..

وقاطعتها امرأة عجوز قائلة :

- مهلا يـا بنيتـي.. فمـا هكـذا يكـون العـدل ، ولا هكـذا تـورد الإبـل.. ولـو أنصـفتنّ لعلمـتنّ أنّ التميميّ ما فعل أكثر من انتصاره لنفسـه بعـد ظلم عاش يجتر مرارته أعواما، بعـد أن وسـمه

الكاسر في منكبه كما توسم العير.. وجرحٌ بجرح ..ونَدبةٌ بندبةٍ.. والبادئ أظلم..

والتفتت إليها الرباب قائلة :

- إذن فأنت في صفّ الغريب ؟

قالت العجوز :

- بل في صفّ الحقّ.. وما أظن والدك وهو كبيرُ القوم وحكيمُهم إلا مثلي، في صف الحق..

ثمّ تنهدت وهي تحمل جرتها على كتفها ، وتقول مدبرة:

- صدق الذين قالوا : الغريب أعمى ولو كان بصيرا..

المشهد الثالث :

قريبيْنِ من العير والأغنام التي يرعيانها،مستظليْن بصخرة من صخور الجبل

obeikandl.com

الأحمـر ، جلـس (دخـان) و(ليـل) كعادتهـا يعلّقـان وهما الساخران على ما حدث البارحة ..

وقـال ليـل ، وهـو رجـل قصـير القامـة، أسْـوَد البشرة،مضحك العبارة :

- لقد طرحه طرْحَ الرجُلِ رحله عن بعيره ..

فردّ عليه دخان وهو الطويل النحيف:

- إي والذي خلق الرحال ..وخلقني طويلا وخلقـك في ظلي كما يخلق الحلزون في ظل النخل.

قال (ليل):

- فعل به ذلـك ، رغـم أنّ اسـمه الكاسـر ، فمـاذا كان سيفعل به لو أنّ اسمه كان المكسور..

- فقال دخان وهو يصفع قفا صاحبه:

- يبدو أنّ هـذا التميمـيّ لا يفـرّق بـين كاسـر ولا مكسـور، ولا طويـل ولا قصـير ، ولا أسـود ولا أبيض ، ولا عربي ولا أعجميّ إلا بالسيف..

قال ليل وهو يدير أصبعه في منخاره:

obeikandl.com

- حين أرى هذا التميميّ في الطريق أتذكّر فرعون ..

ثمّ يغمض ليل عينيه قليلا ، ويشد شفتيه إلى أعلى نحو أنفه ، مقلّدا التميميّ في صرامته وغروره .. ويضحكان.. قبل أن يضيف ليل:

- هل أقص عليك قصة عن هذه الأسماء الحجرية : كاسر،صادم،قاطع،وهلم كسرا ؟

فردّ عليه صاحبه دخان :

- لا أريدها..

- قال ليل وكأنه قد سمع منه الإذن له بأن يقصها:

- يقولون إنّ أعرابيا التقى بقوم فسألهم عن أسمائهم ، فقال الأول : (اسمي وثيق) ، وقال الثاني : (اسمي شديد) ، وقال الثالث : (واسمي منيع) ، وقال الرابع : (وأنا اسمي ثابت)،فقال

الأعرابـــي: (مــا أظــنّ الأقفــال صــنعتْ إلا مــن أسمائكم) ..

وقهقه الرجلان ، وراح أحـدهما يضـرب علـى ظهـر الآخر وهما يغنيان :

إطرحني إطرحني

مثل الجَدي اطرحني

معْ معْ مع معْ مع معْ

إطرحني واذبحني

خاسرْ.. خاسرْ.. خاسرْ

يا من يُدعى الكاسرْ

مثل القربة ألقا

كَ العفريتُ الثائرْ

يا للحظ العاثرْ

يا للحظ العاثرْ

ويخطئ (ليل) فيقول منسجما مغنيا :

- يا للحظ العاشر..

obeikandl.com

فيصفعه دخان على قفاه وهو يقول:

يا للحظ العاثرْ.. وليس العاشرْ.. أكلتكَ أمك..

obeikandl.com

الحلقة الرابعة

المشهد الأوّل:

كـان الـدخان لا يـزال يتصـاعد مـن بقايـا الخيـام والجثث المحروقة في حيّ بني عبس..بينما شيخ قبيلة العبسيين الشيخ الأرقط بن سعيد يقف مع بعض رجال الحيّ ، يتأمّلون الدمار الذي خلفه اجتياح الفُرْس..وكان بين عبس وهوازن ما صنع الحدّاد أزمانا لم يهدأ فيها أُوار الحرب ولا خمدت فيها جمرتها..وما يكاد يسعّرها أمر تافه إلا واستعرت ، لتحصد المزيد من أهل الحيّيْن..

وقال أحدهم وهو يشير إلى جهة الشرق :

- أعددنا العدة لدفع خطر هوازن المحتمل من هنا ..من جهة الشرق ، فجاءتنا الطعنة غِرةً من خلفنا ، من جهة الغرب ..من هؤلاء الأعاجم ذوي التاريخ الأسود في الحقد والتخريب والطعن في الظهر..

obeikandl.com

ويعلّق الشيخ الأرقط بن سعيد متحسرا :

- تلـــك بلـــوى أحيـــاء العـــرب وقبـــائلهم .. يتفانون،ويدقون بينهم (عطر منشم) والناجي المنتصر منهم ، تفنيه فارس..

ثمّ يميل الشيخ وجهه يمنـة ويسـرة فـي اسـتنكار ويقول :

- ما تزال عينُ فـارس علـى نسـائنا وجيادنـا مـن زمن النعمان بن المنذر..والمرأة عرض والجواد شرف..

قال أحد الواقفين عن يسار الشيخ الأرقط :

- لقـد ضـاقت هـذه الصـحراء علـى مـن فيهـا مـن الإخوة ، بسـبب الحـروب وقطـع الطريـق والترويـع والقتل..وليت شعري ، ما الذي يكون لهـؤلاء بقتـل أولئـك ، أو لأولئـك بقتـل هـؤلاء،غير لعنـة الـدماء وآثـام قطـع الـرحم.. وغيـر زيـادة ظهـور وتسـلط للفُرس..؟

obeikandi.com

وقال الشيخ الأرقط :

- هـــي لعنـــة الصـــحراء التـــي مـــا فتئـــت تهـــبّ مـــع رياحها،وتـــذري الأرواح إذراء غبارهـــا..هـــي لعنـــة الصحراء التي أطفأهـا محمـد صلى اللّه عليه وسلم زمنا ، ثم هي ذي تعود عاصفة..تطيّـر الخيـام وتهـزّ الأوتاد ، وتذر الديار بلاقع..

وســـار الشـــيخ الأرقـــط ، يتفقـــد مـــا بقـــي مـــن قبيلته،وسـار معـه مرافقـوه.. بـين قامـات الـدخان المتطاولـــة ، التـــي كانـــت تـــروي حكايـــة الغـــزاة الحاقدين الذين مرّوا من هنـا، مخلّفـين كعـادتهم الرماد والوجع..

وارتفعتْ في الأرجاء ترنيمة حزينة ، آتية من بعيد البعيد :

((يا واقفينَ على أطلال مَن ذهبا

لا تكثروا اللوم،لوْمَ الغير ، والعتبا

قفوا ولوموا لأجل الحقّ أنفسكمْ

أنتمْ فتحتم له الأبواب، فارتكبا))

متحسرين ، ينتقل شيخ القبيلة ومرافقوه من جهة من الحيّ إلى جهة ، يعاينون ما حلّ بأهله من فجائع ، ويمرّرون عيونهم الدامعة على جسد محترق هنا ، ووجه دامع العينين يكسوه الغبار،هناك .. وكأنهم كانوا يسمعون صوت دليل المأساة وهو يشير إلى الأشلاء الممزقة والجثث المرمدة ، ويقول في لحن حزين:

((هنا صبيةُ عشرٍ شَقّ آسرُها

ثيابَها، خمّشتْ خدّيه، واقتربا

هنا هنا مات مُهرٌ عمره سنةٌ

هنا رموهُ بسهم الموت ، فانقلبا

هنا توجّعَ طفلٌ في قماطتهِ

لمّا رأى أمهُ تحبو إليهِ حبا

ebook4all.com

هنا توسّد شيخٌ نعلَه وبكى

وراحَ يمسح من جرحيهِ ما ثعبا

ومن هنا بين دور الحيّ يا وجعي

مرّ الجناة،شديدو العُجمة، الغُرَبا))

وما إن أتمّ الشيخ ومن معه استعراض ما حلّ بالحيّ، وما إن اكتمل مُطرب الموت من أغنيته الحزينة التي تذيب الأكباد ، حتى أمسك الشيخ الأرقط وجهه بيمناه ، وهوى إلى الأرض على ركبتيه ، مختنقا بنشيجه، بينما قبضتاه تضربان الأرض وتذريان ترابها ، وهو يقول :

- ويل للعرب من تفرقها .. ويل للعرب ..ويل ويل ويل..

المشهد الثاني:

انتشرَ خبرُ ما فعله الفُرْسُ بحيّ بني عبس ..بين أحياء العرب ، واستقبلت القبائل أنباء ذلك بين مستبشر متشفٍ ، ومتألّم مسترجع..

obeikandl.com

أما هـوازن ، وهـي مـن أشـد الأحيـاء عـداوة لبنـي عــبس ، فقــد كــان أكثرهــا علــى الحــزن علــى غرمائهم ، ولسان حالهم يقول : (بأيدينا لا بأيدي الفارســي).. وكــأنهم رغــم كــل شــيء ، ورغــم تــاريخهم الــدامي والمتــوتر مــع بنــي عــبس ، لا يرضون - إن رضوا لهم هلاكا - أن يكون هلاكهم على يد عدوّ أعجميّ ..

وقــد كــان الليــل فــي أولــه حــين دخــل جميــل خيمته،فوجد خالَيْه ، أسيدا وسعيدا ، لـدى أختهمـا البارعة.. التي لـم يكـن مـن العـادة أن يزوراهـا إلا في مناسبة أو لأمر جلل..

لــذلك ، مــا إن رأى جميــل خالَيْــه ، حتــى خمّــن أنّ هناك ما استدعى زيارتهما تلك..

وســلّم الفتــى عليهمــا مُرحّبًــا بهمــا بمــا يليــق بمقامهما وبكرمه..

قال أسيد وهو الخال الأصغر لجميل:

- تسبقك أخبار تسرّ يا ابن أختي..

ولم يجد جميل ما يردّ به على خاله ، وقد عرف المغزى من مقولة خاله تلك ، وخرَصَ أنها قد تكون السبب في هذه الزيارة..

لكنّ سعيدا قطع كل تخمينٍ وتخرّصٍ، وقال:

- إنما جاء بنا الليل ، والليل سِترٌ، لأمرٍ نظنه هامّا ، ونرى أنه من الأحرى أن تعلموه..

وما ذاك سوى أنّ بعض عيوننا لدى فارس قد أرسلت إلينا تخبرنا عن استعداد الفرس لغزونا..والفارسيّ ذئب مسعور ، لا يكاد قيظ الصيف يشتدّ عليه ، إلا وأخرج لسانه لاهثا،يسيل من أنيابه سمّه، متحرشا بكل من يقابله..

ووجدها جميل سانحة للسؤال عما حدث لبني عبس ، فقال :

- وما أمر بني عبس يا خال ؟

فأجابه خاله الأكبر سعيد:

obeikandl.com

- - ما أصاب عبسا ، إلا ما كان يصيبها على الدوام ، تغرس غرس النسل والضرع والزرع وتتعهده بالسقي والرعاية ، حتى إذا اشتدّ وحلا في العين ،حصدته فارس.. ما أصاب عبسا هو ما كان يصيب غيرها من أحياء العرب على الدوام ، وهو ما سيصيبنا نحن ، ما دامت الحال هي الحال.. ولا يزال العرب يرددون حفيدا عن ولد عن جد : (ما تزال عينُ فارس على نسائنا وجيادنا من زمن النعمان بن المنذر..والمرأة عرض والجواد شرف..)..إلا أن نفقأ عين الفرس بذي قار أخرى..

ويسأل الفتى خاله :

- وما ذاك يا خال..وما أمرُ ذي قار ؟

فيجيبه خاله أسيد :

- تقول الحكاية ، إنّ كسرى فارس كان قد طلب من النعمان بن المنذر ملك الحيرة أن يهبه

جـواده العربـــي ،إذلالا لـــه ، فــرفض النعمــان ..وكانت الحرب..

وقام أسيد من مكانه ، مقاطعا أخاه وهو يقول :

- بل إن الحكاية تقول: إنّ كسرى قـد ذكـر يومـا جمال النساء العربيات ، وكان في مجلسه رجـل عربيّ باع ذمته ، يقال له (زيد بن عديّ) ، كان النعمان قد قتلَ والده (عديّ بن زيـد)..وجـدها فرصة سانحة للإيقاع بالنعمـان لـدى كسـرى ، فقـال : (أيهـا الملـك ، إنّ النعمـان بـن المنـذر لديه من أخواته وبناته وبنات عمه وأهله أكثـر من عشرين امرأة على هذه الصفة)..

ومـا كـان مـن كسـرى اسـتهتارا إلا أن أرسـل إلـى النعمـان يطلـب منـه أن يرسـل إليـه مـن حرائـره أجملهنّ..

قال جميل بنبـرة مـن فقـدَ صـبره ، بعـد أن أوقفـهُ الغضب وبدا التوتر في فرقعة أصابعه..:

obeikandl.com

- وماذا فعلَ النعمان ؟

قال سعيد:

- ردّ رسولَ كسرى ، قائلا : قل لملكك أمَا في مها السواد وعين فارس ما يبلغ به حاجته؟

قال جميل مستعجلا خاله :

- ثمّ ماذا ؟ ماذا بعد ؟

قال سعيد:

- مرت شهور ، والنعمان يتوقع غدر كسرى ،وزاد عنده يقين ذلك حين أرسل إليه كسرى يستقدمه ، فقطع الصحارى وطاف بقبائل العرب يطلب نصرتها ، من جبل طيء إلى بادية بني شيبان .. لا يجد له نصيرا إلا من بني رواحة أو من هانئ بن مسعود الشيباني ..غير أنه لم يكن لهؤلاء طاقة بكسرى.. وانتهى النعمان على أبواب كسرى يسترحمه .. ومات بعد ذلك إذلالا وقهرا.. غير أنّ ذلك كان

obeikandl.com

بداية لمعركة انقسمت فيها العرب بين مواجهة كسرى وبين موالاته.. وكانت معركة ذي قار قاصمةً لكسرى ، بعد تاريخ طويل عاث فيه الفرس فسادا وخرابا..

وضرب جميل يدا بيد ، وشدّ بنواجذه على نواجذه،وهو يقول :

- يا لثارات النعمان ..ويا لثارات نساء النعمان ..ويا لثارات جواد النعمان..ويا لعار العربيّ حين يرضى أن يكون راعيا لخنانيص فارس..يا لعار العربيّ حين يعرض شرف الحرائر العربيات على الأعجميّ ..

وكان القمر في تلك الساعة من الليل، يمرق فوق خيام الحيّ ، سهما في رميّة .. هادئا لا يتعثّر بذيل ..ولا يتكدّر بغيم..

وفي الظلام خرجَ خالا التميميّ ..تاركيْنِ الكثير من الأسئلة والدماء الفائرة في رأسه..

المشهد الثالث:

ساق الفُرس ما غنموه من أسلاب، ومن أسروهم من حيّ هوازن ، إلى بلاد فارس..ولم يكن الوافدون الجدد على الزنازين ، يتصورون مثل تلك الحال التي وجدوا عليها من سبقهم من أسرى العرب لدى فارس طوال سنوات ..

ولعلّ تسمية الفُرس لهذا الحبس بالمحشر ، يعطيه بعض معناه الحقيقي..

كان المكان موحشا مقرورا، تنبعث منه الروائح الكريهة ،والأنات الضعيفة ، والصرخات المتوجعة ، وليس فيه من النور إلا قدر ما يحيل الظلام فيه إلى غبش رمادي..

الحجارة الضخمة التي بنيت بها الجدران تزيد المكان رهبة ، وقسوة السجانين تجعله مساحة

obeikandi.com

تُهدر فيها الآدمية .. إذ لا مجال هنا للحديث عن الرحمة والشفقة..

كلّ ما في المكان ، صلب وقاسٍ، من حجارة البناء،إلى القيود التي تحز المعاصم والسيقان،إلى مرزبات التعذيب ، إلى قلوب الحراس..كل ذلك من حديد أو من صخر..

وتحت كل ذلك عالم سفليّ من الضعف والهوان والأنين الخافت ونظرات الاسترحام والاستعطاف..

وزُجّ بالأسرى وبالسبايا الجدد المستقدمين من حيّ هوازن ، في زنازين مكتظة ، حبسوا فيها أنفاسهم للحظات من هول ما رأوا.. ومن قسوة ما صدمهم ..

حتى جثث الموتى الذين قضوا في زنزاناتهم منذ يومين ، لم تُخرج من الزنازين ، بما يعنيه ذلك من روائح خانقة تثير الغثيان ..

obeikandl.com

وهمس الزبرقان لنفسه وهو يُدفع داخل زنزانة مكتظة ، قبل أن يرتفع صرير الباب الخشبي الضخم وهو ينغلق خلفه بإحكام :

- هذه إذن أخلاق فارس ، وهذه حضارتها ،وهذه قيمة الإنسان عندها..

ولم يأبه أحد بما قاله، لأن الذين سبقوه إلى هذا المكان تعلموا عدم الاهتمام ، وهم مجرد أشباح يشدّ فيها الجلد المهترئ العظمَ.. دون أن يكون لهذه الكائنات المتعبة شيء من الاهتمام أو الحلم أو اللذة في شيء ..

وطاف الزبرقان في المكان يتأمّل هؤلاء المعذبين في الأرض ، المغيبين عن الشمس والهواء..ويده تمسك بأنفه اتقاء للرائحة الكريهة.. قبل أن يتعثّر بجثة شيخ كبير..

ولم يستطع الزبرقان أن يكبح جماح فضوله،فاقترب من أحدهم ، يقول:

obeikandl.com

- السلام عليكم يا أخي ..
- - وحين لم يردّ هذا الطيف النحيل الضئيل السلام ، شعرَ الزبرقان بهول ما تعرّض له هؤلاء من التنكيل..

غير أنه التفت فجأة ، وقد سمع من زاوية من الزنزانة صوتا خافتا،لم يتبيّن ما قال صاحبه، لكنه خيّل إليه أنه ردّ عليه السلام ..

واقترب الزبرقان من مصدر الصوت ، وقال :

- السلام عليكم ..

فردّ عليه هذا الشبح المتبقي مما كان رجلا،بصوت يشبه الحشرجة :

- وعليكم السلام ..

ورغم ما كان ينبعث من ثياب الرجل من روائح،ورغم هيئته المزرية ، وشعره الملبّد الأشعث .. ورغم أنه كان أقرب إلى صورة الشبح منه إلى صورة الإنسان ، إلا أنّ الزبرقان وجد

نفسه يندفع إليه ، دون أن يعلم ، هل فعل ذلك ليطمئن الرجل بوجوده ، أم ليطمئن نفسه بالرجل؟.. وبكى ..بكى كما لم يبك في سابق حياته يوما .. دون أن تسقط للرجل دمعة .. فلكأنّ المغيبين في هذا المحشر قد فقدوا كل أحاسيسهم ، أو لكأنّ المكان المصنوع من حديد وحجارة قد فرض عليهم بطول الزمن أن يشبهوه ، وأن يتحولوا إلى كائنات حجرية ، قلوبها من حجارة وعيونها من حجارة وأفئدتها من هواء فاسد.. كما هي تلك الزنازين تماما..

كان يمكن أن يقال إنّ صرخات الأسرى الجدد المستقدمين من هوازن ، كانت في تلك الساعة تشقّ عنان السماء ..لكن هذا المكان بلا سماء .. إنه فقط ظلمات بعضها فوق بعض ، في غياهب تحت الأرض ، كالأقبية.. يحوّل المرء فيها إلى نوع من القوارض لم تعرفه البشرية إلا في ما شابه

هـذا المكـان مـن أقبيـة يخلـع الـداخلون إليهـا مـن سجانين قلوبهم على أعتابها ، كما تخلـع النعـال ، بينمـا يخلـع الـداخلون إليهـا مسـجونين أحلامهـم وأمــانيهم الجميلــة، ويودّعــون علــى مــداخلها الشمسَ والخضرةَ والعصافيرَ والنسيمَ..

كـان عنـاق الزبرقـان للرجـل حـارا ..بحـرارة مـن اكتشـف قلبـا ناجيـا مـن التحجـر مـن قلـوب تلـك الكائنات البشرية المردومة في هذا القبو الرهيـب .. وبحرارة من اكتشف شيئا واحدا من غير الحجارة والحديد ..

وأبعد الزبرقان وجهه عـن الشـبح يتأمـل ، دون أن تترك أصابعه ذراعيه .. ثمّ رفع عينيه إلى السـماء وصرخ صرخة مدوية :

- تبا لفارس...

وما هي إلا طرفة عين ، حتـى فـتح بـاب الزنزانـة ودخــل جــلاوزة شــداد اقتــادوا الزبرقــان إلــى

obeikandi.com

الخارج،وقد انهالوا عليه ضربا بـدون رحمـة..لتبـدأ ربما رحلة تحويله إلى كائن حجري ..

obeikandl.com

الحلقة الخامسة

المشهد الأول:

في حيّ هوازن ، كان حديث الناس عن هجوم محتمل للفرس على الحيّ ، قد غطى على حديثهم عن المبارزة بين جميل والكاسر..

في تلك الساعة من الصباح ، كان جميل يعبر خيام الحيّ إلى طرفه ماشيا ، لتفقّد قطيع له عند راع ..هذا ما قاله لوالدته وهو يستأذنها في غياب نصف يوم.. ولعلّ تعهّد القطيع لم يكن سوى حجة للشاب التميمي ، ليخرج إلى الفضاء الفسيح،هو المحبّ للخلوة ولتأمّل آفاق هذه البادية..أو لعلّ الشاعر فيه قد أحسّ بقصيدة تتلجلج في الروح ، وتقوده إلى موعد مع شياطينه في طرف الحيّ نائيا عن الناس..

كانت الأسئلة الكبيرة تعصف برأس الفتى منذ آخر لقاء له مع خاليْه ، أسيد وسعيد ،أسئلة القبائل

obeikandi.com

العربيــة المتنــاحرة ، والعنجهيــة الفارســية التــي تمتهن كرامة كل القبائل ..

كان الصباح صيفيا منعشا ، تلطّفـه نسـائمُ يـورقُ بها شوق المشتاقين ، وتذوب بها مهج المحبين..

ولم ينبه الفتى المستغرق في تفكيره غيرها، وقد تنحنحت وهي تقتـرب منـه ، وقـد جمعهمـا الـدرب متقـاطعين..الربـاب بنـت سيّد الحـيّ .. حيـي بـن عـوف.. بكـل فتنـة صـباها، وحقـد عينيهـا،ودلال النعمة فيها..

بكلّ شموخ أنفها ، وشـموخ أنفـه .. وعـزة نفسـها، وعزة نفسه .. وبكل ما بينهما من بعد المسافات..

وما إن اقتربت منه ، لا يفصلها عنه إلا مقدار طولِ ثلاثة رماح ، حتى أوقعت السرج الذي كانت تحمله ..متظاهرة بأنه أثقل كاهلها..

وانحنت لتحمله ، وسبقَها إليه ..

رافعـيْن مـن انحناءتيهمـا ، التقـت عيونهمـا ،فـي لحظة استثنائية هـي الأكثـر تقريبـا بينهمـا..ورأى عينيها بوضوح ، بكـل مـا تحملـه فيهمـا مـن مكـر وتـناقضات وحيرة ..ورأت عينيه بكلّ ما فيهمـا مـن تـناقضــات الشــاعر والمقاتــل ، القريــب والغريــب ..وكانت أجرأ منه..وقد ثبتت عينيها فيه إذ أعرض بعينيه عنها..

لم يقل شيئا .. ولم تقل شيئا .. سار يحمل السرج ، وسارت خلفه ، وأمام خيمتها كان والدها ينتصـب مثل نخلة عربية ، وسلّم عليـه التميمـي ..قبـل أن يضع السرج على الأرض أمامه،ويعود أدراجه..

وتبعت التميميَّ دعواتٌ من فم شيخ الحيّ ..

في طريقه إلى طرف الحيّ كانت عينا صبية فاتنة تطاردان أفكار الفتى التميمي، وكان يهرب منهمـا ، ويطيّرهما كذبابتين لا تسأمان من إزعاجه ..

ولا يعرف جميل لمَ تذكّرَ رحلات الصيد في تلك اللحظات .. ربما لأنه رأى من عينيها ما يشبه عيون الغزلان والمها.. أو ربما لأنّه أحسّ في تلك اللحظة بما شكّ تفاحة قلبه ، وشقّ حارّ كبده من سهام الكحل..

طوت أفكارُه الطريقَ طيا .. وهو ذا قد أَصْحَرَ حتى لم يعد أمامه سوى فجاجٍ ممتدة نحو آفاق بعيدة يلعب السراب فوقها ويتماوج الوهم عليها ..

واستقبل ديارَ قومه بني تميم .. وأغمض عينيه ، ورفع رأسه يملأ صدره من الهواء القادم من مضارب قومه..

كان في قلبه شوق كبير لذكريات صغيرة ..شوق فتى في ديار هوازن، إلى نفسه طفلا صغيرا في ديار تميم ..وقد مرت سنون ، ولا شيء يطفئ جمر الغياب غير بعض أخبار يتصيدها الفتى عن

حيّ أبيه وجده ، تأتي بها الركبان سارّة أحيانا ومحزنة أحيانا..

كانت ريح الصحراء تلعب بذيل ثوبه .. بينما أفكار كثيرة تشوّش رأسه وتلعب به.. وتداخلت حال قبائل العرب ، بصلف الفُرْس ، بعينيْ الرباب ، بذكريات الفتى طفلا في بني تميم ، بقصيدة شعر أحسّها تقطر قطراتها الأولى على كبده ..

كان يفكّر في كلّ ذلك ، دون أن يفكّر فعلا في شيء من ذلك .. تائها كزورق في بحر متلاطم، أو كريشة في العاصفة ..وسالت الكلمات من شفتيه كحبات الندى إذ تثقل أوراق الورد ثم تحنيها لتنزل مِن على ظهرها:

(أنتَ الذي يا قلبُ خلتكَ لا تهابُ

أبدا ولا يعنيك في الهيجا اضطرابُ

ماذا دهاكَ وقد رأيتَ عيونها

يا عار عاركَ كيف تربككَ الربابُ ؟)

ثمّ يرفع الفتى يمينه نحو ديار بني تميم ،ويقول:

(يا دار قومي ...والديار إذا نأى
عنها محبٌّ،ظلّ يعصره الغيابُ
في القلب مثل النار ، يا هذي الرّبى
يا هذه الصحراء يا هذي الرحابُ
البرق يشعلني.. إن لاحَ ذكّرني
فيكمْ ،وتُحرقني النسائم والسحابُ
ردّي الصدى ..أقسى الديار على الفتى
ما لا يُردُّ له لمشتاقٍ جوابُ)

ومن البعيد كانت عينا البارعة ،كعيْنَي يمامة،تراقبان نقطة السواد التي لم تكن سوى جميل،وهو يستقبل ديار قومه ..وقد شعرت بما كان يتلاطم داخله من بحار..

obeikandl.com

المشهد الثاني :

ما كاد جميل يخطو خطواته الأولى عائدا إلى الحيّ ، حتى سمع هيعة بعيدة ، وألقى بصره نحو مصدر الجلبة ، فظهر له غبار ..وجرى إلى جواد لدى بعض الرعاة ، فركبه وشقّ الصحراء بِخطٍّ من الغبار ..وراعه أن يرى أحد الرعاة مصابا ينزف،بينما راعيان آخران يناوشان فارسيْن ملثميْن ،يلبسان السواد..

ووثب التميميّ إلى الفارسين ، يقارعهما بسنانه،وما كاد الوطيس يحمى ، حتى وقع أحد الفارسين الملثمين على الأرض مضرجا بدمه،يئن من جرحه ، بينما فرّ الثاني لا يلوي على شيء..وتبعه جميل ، غير أنه كان أسرع فنأى ونجا..

oubeikanal.com

وسـرت فـي الحـيّ رجفـة ذعـر ، وظـنّ بعضـهم أنّ أخبار هجوم فارس قد صدقت ، وخرج آخـرون إلـى طرف الحي يستجلون الخبر .. وعلا رجـالٌ صـهواتِ خيولهم ، وتجمعوا حول خيمة شـيخ الحـيّ ، بينمـا جـرت نسـاء بـين الخيـام يطلـبن أبنـاءهنّ الصـغار ،مـذعورات..كـدجاجات روّعـتهن حـدأة ، فـانتثرن يمينا وشمالا يبحثن عن صيصانهن وقـد فـرقتهم لحظة الذعر..

وما هي إلا لحظة من فوضى ، حتى دخل التميمي الحيّ واقترب من الجمع حول خيمة الشـيخ،وأمامه على الجـواد الـذي يركبـه راعٍ جـريح ، بينمـا علـى حصان يجره خلفه من لجامه، فارس جريح ..

ولم يكن الجواد الذي يركبه التميمي ، والذي أخذه من الرعاة ، سوى جواد للكاسر بن حييّ.. لذلك مـا كاد التميميّ يقتـرب مـن الجمـع حتـى اقتـرب منـه الكاسر يوبّخه ويقرّعه ، قائلا:

- السرج المذهّب لا يصنع فارسا مذهّبا يا...تميميّ..

وقد صمت الكاسر قبل نطقه بكلمة تميمي ، بقدر ما يعنيه الصمت من الانتقاص ..ثم زاد :

- وخيول القبيلة لا يركبها إلا فرسان القبيلة ..

وقاطعَ الكاسرَ والدُه ، وهو يَخرج من خيمته ،ويقف بمحاذاته ، ويدفعه إلى الخلف في ازدراء واستنكار، مخلّفا إياه وراءه ، وهو يقول للتميمي مقتربا نحوه :

- كفؤ أنت يا جميل ..كفؤ وزيادة ..وبك تزدهي سروج الذهب وتتشرف خيول قبائل العرب كلها.. والخيل مثل الأرض يورثها اللّه من هو أهل لها.. ويحرمها مَن ليس لها بأهل..

وكذلك كانت العرب تقول .. السروج لأهلها ..والأرض لأهلها..

obeikandl.com

وتبادل الكاسر وابن عمه وثاب وبعض رفاقهما من شباب الحيّ الناقمين على التميميّ نظرات الشرّ والحقد..

- ولم يقل التميميّ شيئا .. واكتفى بأن ألقى الراعي الجريح إلى أيدي الناس ، ليسعفوه ،ثم ترجّل عن جواد الكاسر ..ومشى إلى خيمته ..

بينما كان رجال يحملون الراعي والفارس الجريحين إلى داخل خيمة شيخ القبيلة المشرعة على الحيّ ..

المشهد الثالث:

قبل بلوغه باب خيمتهما ، استقبلت التميميّ أمُّهُ تتلمس جسده وتتحسس ثيابه ، مذعورة تطمئنّ..وابتسم الفتى لوالدته ابتسامة سرت في جسدها من عينيها ، فهدأ روعُها .. وقالت بنبرة متسارعة مستعجلة، وهما يدلفان :

oobeikandi.com

- ما الأمر يا جميل ؟ ماذا حدث؟ مَن الجريحان؟ هل أصابك مكروه ؟ هل الفُرس.....

وقاطعها ابنها وقد اتسعت بسمته، مقدّرا خوفها عليه :

- لا بأس يا أماه.. لا بأس..

وعادت للسؤال ، لكن بنبرة أهدأ هذه المرة :

- لكن ..ما الذي حدث ؟

وأجاب:

- فارسان كانا قابعين يترصدان الحي ، وقد كشفهما الرعاة ،فأصيب أحد الفارسين وفرّ الثاني ، كما جرح أحد رعاة الحيّ.. هذا كل ما في الأمر..

وما كاد جميل ينهي قصة ما حدث ، حتى هزّ خباءهما صبيّ صغير ، يقول من خارج الخيمة:

- أيها التميمي، سيّد القوم يطلبك ..

obeikandl.com

وعـاد التميمـيّ فلـبس عباءتـه ، خارجـا إلـى شـيخ الحيّ ..

المشهد الرابع :

مــا إن بلــغ جميــل خيمــة الشــيخ حيــيّ، شــيخ الحيّ،حتى رأى المجلس مشتملا ، وحوله اجتمع رجــال ونســاء يســتطلعون الخبــر ، ويتطلعــون بنظـراتهم إلـى زاويـة فـي الخيمـة ، حيـث يقـوم بعضهم بمعالجة الجريحيْن ..

وقد سرى في الحيّ أنّ الفارس الجريح فارسيّ ، لا يــتكلم العربيــة ، لــذلك استحضــر الشــيخ إلــى المجلس من يترجم له ما يقول الفارس الجريح..

أخذ جميل مكانـه فـي المجلـس ، وقـد تعلقـت بـه عيـونٌ إكبـارا ، وناوشـته عيـونٌ بنظـرات الحسـد والحقد..

وقال الشيخ حييّ :

obeikandi.com

- وإذن فهذه عيون فارس بـدأت تستكشـف حيّنـا وتـمهّد لغزونا مرة أخرى ، نـحن الذيـن لم نُشـفَ بَعد مِن جُرح فارس من هجومها على حيّنا منذ عشرة أعوام..ولفارس في قبائـل العـرب جـراح قديمــة لا تنــدمل حتــى تحــل فوقهــا جــراح جديدة..

وقال ذؤيب بـن مـرة ، وهـو كهـل سـمين، يـنكش الأرض بعود في يده :

- وإذ لا قِبَل لنا بـالفُرس ، فمـا نحـن إلا أضـحيةُ ليلةِ عيد .. لا نملك أكثر من انتظار قضائنا في الصبح..ولا أخال الصبح إلا قريبا..

وما كاد الكهل يكمـل قيلتـه تلـك ، حتـى ردّ عليـه شيخ مسنّ من الجالسين على يمين شيخ الحيّ :

- إياك أن يضرب لسانُكَ عنقَك يا ذؤيـب..فلـيس الحزم أن تكسر سيفك قبـل ملاقـاة العـدو..ولا أن تفتح حرمة باب خيمتك للفُرس حتـى قبـل

أن يركبوا إليك .. إنما الحزم أن تنشب أظافرك إن لم يكن لك غيرها ، أن تنشبها في عدوك .. وأن تقاتل عن حرمة خيمتك..

وأراد ذؤيب أن يردّ بشيء .. فقاطعه سنان بن الربيع ، بلحيته الكثة البيضاء ، وتجربة عمره الذي تجاوز التاسعة والتسعين، بكلماته المرتجفة المتقطعة :

- لا معوَّلَ على قهر الفرس وكسر شوكتهم إلا باجتماع قبائل العرب.. وقبائل العرب ما ترونَ وما تسمعون ، فرقةً وتشتتا وصراعا وغدرا فيما بينها..ومن العرب من والى الفرس فهو عبد ذليل لهم وخادم مطيع ، يجمع لهم ما يطلبون ويدأب فيما يشيرون،ويتنازل لهم حتى عن شرفه وعن ضفائر نسائه .. غير أنّي وبتجربة سنوات عمري أقول : إنّ في العرب خيرا إن هي وجدت لها رجلا بقامة أطول

obeikandl.com

جبالهـا ، وبجنـون أعتـى عواصـف صـحرائها ..
ذاك الذي ينقص العرب ، وذاك هو الكـيّ الـذي
سيشفى به الفُـرس مـن داء جبـروتهم وجنـون
ظلمهم..

وقال شيح الحي:

- الــرأي رأي ســنان بــن الربيــع .. ويمنعنــا هــذا (وأشــار إلــى أنفــه) ، مــن أن نبيــع ذمتنــا أو أن نــرهن ســيوفنا للفــرس، ونتحــول إلــى جــامعي مغانم أو رعــاة خنــازير لــديهم ..المـوت أشـرف ..لــذلك أرى أن نرســل رســلا إلــى بعــض مــن نطمـع فـي نجدتـه ونخوتـه مـن قبائـل وأحيـاء العرب..

المشهد الخامس :

كان ليلٌ ودخان يجلسان قريبا مـن خيمـة الشـيخ ، يراقبـان المشـهد ، ولا يكفّـان عـن أحاديـث الغيبـة والنميمة التي تعوداها..

obeikandi.com

وقال ليل ، مقلّدا ذؤيب بـن مـرة ،يعيبـه، بتفخـيم صوته ولَيّ شفتيه في كل اتجاه:

- ((فمـا نحـن إلا أضـحيةُ ليلـةِ عيـد)).. لـو كنـتُ أعرفُ قبل هذا أنـه عنـزة ،لأخرجـت لـه لسـانه على ركبتـي، وضـحيت بـه ، وأنـا أولـى بـه مـن الفرس ، لأنه من قطعاننا ويأكل عشبنا..

وصفعه دخان على قفاه وهو يقول :

- تـخرج له لسانه على ركبتك ؟ وأين هي ركبتك هذه التي تتحـدث عنهـا ، أنـت بمجملـك لسـت سوى نصف ركبة.. وبعـض الشّعر..ورحـم اللّه الثـوب الـذي يسـترك، وإلا لكـان الأطفـال قـد التقطوك مع القنافذ..

قال ليل، لكننـي عربـي ولا يمكـن أن أكـون عنـزة عند الفرس..

قال دخان :

obeikandl.com

أتعرف يا ركبة ..عفوا يا ليل ؟ لقد خدعني ذؤيب هذا عمرا كاملا ..كنت أظنه ذئبا فعلا ..قبل أن أعرف أنه عنزة مستعدة للسلخ ..يا خسارة الدهن الذي يحمله في أوراكه..

وضحكا ثم اندمجا في الغناء:

معْ معْ مع معْ مع معْ — إطرحني واذبحني
يا للعنز إذا ما — عاش بعارِ الجبنِ
ارفع شحمك عنا — يا من تقطر دهنا
يا عنزوزةَ فارسْ — لست أظنّك منّا
ذئبٌ أمسى عنزهْ — فَزْ فزْ فزْ فزْ فَزّهْ
أبعِدْ شحمك عنا — واهززْ خصركَ هزّا

ولعلّ ليلا ودخانا قد انتشيا ، وأنستهما سكرة الطرب مجلس القوم ، ولم ينتبها إلا والضحك يعلو حولهما ، بينما كبار القوم منهم من ضحك

ومنهم من اجتهد في كتمان ضحكته ، بينما قام ذؤيب بن مرة مغاضبا ، وغادر المجلس..

obeikandl.com

الحلقة السادسة

المشهد الأول :

كان الليل رُخّا أسود عظيما يبسط جناحيه على المكان .. ولليل الصحراء سحره ، إذ توشّيه النجوم كثَوب مَلِك..

وللقمر في ليل الصحراء ما لأيّ صبية فاتنة في حيّها.. له بين النجوم ما لأيّ صبية آسرة في بنات حيها ..

وكانوا خمسة.. الكاسر ، وابن عمّه وثاب الذي يمنّي نفسه بالزواج من الرباب ، وثلاثة آخرون من شباب هوازن..

اختاروا طرف الحيّ ، وأوقدوا نارا يتظاهرون بالسمر..بينما كان مجلسهم مجلس دسّ ..وقد اختاروا (دخانَ) ليكون خادمهم ، يشوي لهم على النار ، ويطعمهم ويسقيهم..

obeikandl.com

قال : أحد الشباب يسأل الكاسر الذي كان يمسك بفخذ خروف مشويّة وينهش منها بطريقته في استعراض رجولته التي يذهب كثيرا إلى تجسيدها بتصرفاته :

- وما الذي يشير به ابن سيّد الحيّ ؟

قال الكاسر:

- لا بدّ من أمر ينهيه ، فقد صار خطره يتعاظم يوما بعد يوم..

وأضاف وثّاب :

- هل نلصق به من التهم ما يسقطه في أعين الناس؟

قال شاب آخر :

- كأن ندسّ له شيئا ونقول إنه سرقه ..

قال الشاب الثالث :

- أو أن نتهمه بالتشبب بإحدى بنات الحيّ من ذوات الشرف والرفعة ، ثم نتألب ضده ونؤلب..

obeikandl.com

كـان الكاسـر يتأمّـل آراء أصـحابه ، وفـي عينيـه يجتمع بريق النار ببريق الشر.. قبل أن يقول :

- لقد قلتُ إنّ المطلوب هو أن ندبّر له ما ينهيه .. لا ما ينقص من قدره في أعين الناس..

وأدرك الجمـــع مغـــزى كلامـــه ذاك ، ولعلـــه فاجأهم،فقال وثاب وهو يلتهم قطعة من اللحم المشويّ :

- أتقصد ....؟

وقاطعه الكاسر:

- نعم أقصد .....

ودخل (دخان) في نوبة من السعال ، وقد شرقَ بجرعة الماء التي كان يبتلعها حين نطق الكاسر بكلمته الأخيرة التي أبان فيها عن نيته ..ولم يكن (دخان) في نظر السامرين سوى شيء من الأشياء التي تؤثث ذلك المجلس ، مما لا يؤبه به ..

obeikandl.com

وأضاف الكاسر وهو يحوّل بصره عن (دخان) الذي كان يعالج سعاله وشرَقه.. :

- لقد أدرت الأمر في رأسي طويلا ، وقلبته مرارا ، ولم أجد كهذا الحل حلا..وكهذا الرأي رأيا..

والتفت الشباب الثلاثة الآخرون إلى بعضهم ، كأنّ الفكرة قد راعتهم ..

وقال وثاب :

- ومن للأمر ؟

فردّ عليه الكاسر :

- أنت ؟

وبدا أنّ وثابا قد غصّ هو الآخر بلعابه ، لكنه لم يكن من اللائق به وهو الذي دأب على تصوير نفسه لوالد الرباب وأخيها على أنه الشرس المقدام ، طمعا في رضاهما عليه ، أن يبدي من التردّد ما يفسد صورته لدى الكاسر..لكنه استجمع قوّته ليقول في ارتباك :

obeikandl.com

- ومن للعظائم غير عظيم .. وأنا لها ..

كان القمر قطعة كبيرة من ذهب ، تعبر هادئة متدللة في قلب السماء .. وكانت النار تؤذن بالانطفاء ، وقد أبرم القوم أمرهم على عشائهم ذاك أن يطفئوا النار التي في قلوبهم أيضا، بالتخلص من هذا الفتى الذي لم يعد يمرّ عليه يوم إلا وهو يخطف عقول أهل الحيّ وقلوبهم،أو يؤجج في قلوب بعضهم نار الحسد تجاهه..

المشهد الثاني :

كان جميل يبري بعض نبال ، أمام خيمته ، حين وقفت عليه ثلاثة ظلال في ذاك الضحى المؤذن بيوم حار..

ورفع رأسه في تؤدة ، يستطلع وجوه هؤلاء الذين ألقت عليه الشمس ظلالهم .. ووثب واقفا،حين

رأى امـرأتين منقبتـين ، تقفـان إلــى جانـب صـبيّ صغير، يشير إلى جميل وهو يقول:

- هذا هو التميميّ يا خالة..

ثمّ يولّي مدبرا ،راكضا ..

ورحّب التميمي بالمرأتين ،غاضّا بصـره عنهمـا ..قبـل أن تخرج والدته ، التي ما إن رأت المرأتين حتى هشت وبشت وعانقتهما عناقا حارا طويلا ..

وحـدس جميـل مـن ذلـك العنـاق أنّ لوالدتـه معرفـةً بالقادمتين..

ودخـل الأربعـة الخيمـة، بينمـا كانـت البارعـة تقـول لولدهما :

- ألم تعرف خالتك أيها الفتى الذي لا يعـرف غيـر فنون القتال وبري السهام وصيد الأسود ؟

وكشفت المرأتان نقابهما .. لتضيف البارعة :

- هذه خالتك ليلى ، وهذه ابنتها خزامى.. قـدِمتا إلينا من بني ثقيف..

obeikandi.com

قال جميل :

- لازلتُ أذكر من ملامح خالتي ليلى بعض ما يمكنني أن أعرفها به بعد مائة عام..ولو لم تكن منتقبة لما أخطأتها..

وقالت البارعة :

- أما أنا فأعرف خالتك من عينيها .. ومن عينيها الدعجاوين الواسعتين أيضا عرفتُ خزامى.. ما شاء اللّه .. لقد نضحها القمرُ ببعض سحره،ووشتها النجوم بخيوط جمالها،وأنضجتها بادية ثقيف، وهي ذي وسيمة قسيمة ، خرعبةٌ ممشوقة..

وأغضى جميل في حياء.. واستأذن والدته في الخروج لجمع أدواته ونباله التي تركها أمام الخيمة..

بينما تبادلت البارعة وأختها ليلى ، نظرتيْ مكر،وابتسامتيْ كيد ..

obeikandi.com

المشهد الثالث :

مرّ يومان على حلول ليلى وابنتها خزامى بـالحيّ ، وكانت خزامى صبيّة تكبو بالفرسان جيـادهم فـي مواجهة جمالها .. ولعلّ ذلك ما أثار العواصـف فـي وجه التميميّ من طرف الرباب ، وقد تناقلـت بنـات الحيّ خبر مقدمها وأمر حسنها ..

وكانـت الربـاب قـد رأت خزامـى مـرة منـذ سـنوات طويلة ،حـين قـدمت مع أمها لزيـارة أخوالهـا فـي الحـيّ..حينهـا كانـت الربــاب وخزامــى طفلتــين صغيرتين ، خاليتيْ بـالٍ ممـا يعكّـر أفئـدة الصبايا ويشـعل النـار فـي أضـلعهنّ..وهـي اليـوم تتـذكّر عينيها الواسعتين الآسرتين ، وابتسامتها الصافية ، وخجلها الفاتن..ولئن كان كل ذلك من جمالها قد نما واشتدّ ، فحريّ بكلّ صبية أن تخشـى ظهورهـا معهـا .. تمامـا كمـا تخشـى النجـوم الظهـور أمـام

القمر الذي يُظهر مقامه مقامهنّ..ولو خيّرت لما ظهرت إلا في ليالي غيابه، أو لحظات خسوفه..

ولم تكن الرباب أقل جمالا من خزامى ، غير أنّ غيرتها كانت تشتعل حتى بوجود من هنّ أقل منها جمالا ..

وازداد حقد الرباب على التميميّ بمجيء خالته وابنتها، وكانت في تلك اللحظة من المساء ،مع أختها الصغرى معاذة ،وابنة عمها لبابة، يجلسن في ظلّ الخيمة يحشين الوسائد والمفارش بالصوف..وقد انضمت إليهنّ صبيتان أخريان من صبايا الحيّ ..

وقالت لبابة ، وهي أخت وثّاب الطامع في الزواج من الرباب:

- لقد صارت حديث فتيان الحيّ ، وما منهم إلا حالم بأولادٍ، أخوالُهم من بني ثقيف ..

obeikandl.com

وفهمت الصبايا مرادها ، غير أنّ إحداهنّ قالت في مكر ، وكأنّها تريد أن تستجلي ما في قلب الرباب بما يظهر على وجهها :

- من تقصدين ؟

فردت عليها لبابة :

- الثقيفية الحسناء، ابنة خالة التميميّ ..

وتماسكت الرباب نفسها ، وعالجت ما اشتعل في قلبها من جهنّمات.. وعقدت عزمها على أن لا تبدي للصبايا شيئا من النار الموقدة التي تطّلع على فؤادها في تلك الساعة.. وتجاهلت كيدهنّ.. غير أنّ شقيقتها معاذة ، قالت تخاطبها:

- إن لم أكن مخطئة فقد رأيتك تزدادين شدة وضغطا لأضراسك في حشو الوسادة .. ولا تحشى الوسادات إلا بلين..

ولم تجبها الرباب بشيء ..

قالت صبية :

obeikandl.com

- رأيتها بالأمس تجلس مع خالتها البارعة جنب خيمتها .. ولا أخفيكنّ أنّها أنثى تحبَل بغمزة مِن رَجل..
- وردت عليها أخرى:
- وستزداد وسامة وجمالا لو أنّ فارسا شاعرا أحبها، وقد قيل إنّ الشعراء يزدن حبيباتهنّ جمالا ، قبل أن يدخلنهن القصائد غزلا ووصفا..

وبلغ سيل غيرة الرباب زباه ، فانفجرت غاضبة تقول :

- وما الذي يعجبُ مِن جمال هذه الثقيفية ؟ وما الذي يعنينا من أمرها وهي ليست من حيّنا ؟

قالت معاذة:

- صدقا يا أختاه ، لا شيء يعنينا من أمرها ، فهي ليست من الحيّ ولن تكون لفتى من الحيّ، وكلاهما عندنا ضيفان..هي و....هو..

obeikandi.com

قالت صبية :

- تقصدين التميميّ ؟

ردت معاذة :

- الغريبون للغريبات ، وبنات الحي لأبنائه..والطيور على أشكالها تقع..ومجنونة يمامةٌ من هوازن تريد أن تقع على صقر من تميم مثلا..

ووجدتها الرباب سانحة لتفصح ، وقالت :

- إن كنتنّ ترمين إلى شيء ، فأنا أكفيكنّ ذلك ، فهذا الذي ترمين إليه وهْمٌ من أوهامكنّ وزبد في ماء عقولكنّ ، وما مثلي بالتي ترضى بغريب ملحق ، لا هو عزيز بقومه ، ولا هو حالٌّ في داره..ولا هو مستظل بخيمة وبر من عير قبيلته.. فاكففن عن هذا ، ففي قلبي له ما يحرقه لو زفرتهُ في وجهه.. ولو كان الأمر إليّ

obeikandl.com

لأمرت راعيا من رعاة الحيّ فرماه بسهم شقّ به قلبه فلقتين ..

وقامت مغاضبة تنفض ثوبها في المجلس في تأفّف، ودخلت خيمتها لا تلوي على شيء..

وتضاحكت الصبايا ..

المشهد الرابع :

كانت الأشباح التي في محشر أسرى الفُرس تلحس القليل الذي أحضره الحرس عشاء ،وما عند فارس من كرم الضيافة أو إكرام الأسير ما يدفعها إلى إشباع جوعته..وقد هزلت أجساد هؤلاء الأسرى ، وظهرت عظامهم من تحت جلودهم ..

وكان الزبرقان واقفا يتأمّل صحنه ، قبل أن يقذف به في وجه السجان الفارسي من خلال القضبان المطلة على الرواق الذي تطل عليها زنازين المحشر كلها..وهو يقول في غضب:

obeikandl.com

ومنذ متى كنتم بأخلاق الفرسان في حربكم،حتى تعرفوا قيمة أسراكم .. ما عرفناكم إلا همجا بلا مروءة ، ينكح الرجل منكم أمه وأخته وينزو على حليلة جاره متمتعا بها ، وما أنتم بذلك إلا أخلاط،لا يظهر من أصلها إلا الأمّ التي أنجبت ، أما الوالد فجماعة كثيرون.. يا ابن كثيرين..

وفوجئ السجان بما لم يكن في حسبانه ، وركبه الهلع ، وجرى يخبر زملاءه بما فعله هذا الأسير العربي الذي لم يمرّ على مجيئه إلى المحشر سوى أيام قليلة..

وفي لمح البصر ، وبقسوة الوحوش ، أخرج السجانون الزبرقان من زنزانته ، وانهالوا عليه،بما جعله بعد لحظات بلا ملامح ولا قدرة على الوقوف ، قبل أن يرموه في زنزانته ..

ولم يتحرك الأسرى الأشباح من أماكنهم ، منهم من واصل لحس إنائه ، ومنهم مَن جلس يرقب

openkandil.com

الجسد النازف غير آبه ..وكأنما قد جردهم طول الحبس وشدة العذاب وقسوة الإذلال من أحاسيسهم..

ولم يتحرّك من بين الجميع سوى ذلك الشيخ الذي عانقه الزبرقان في أولى لحظاته في المحشر..

اقترب الشيخ النحيل الضئيل من الزبرقان ، وهمّ بأن يمسح جراحه بكمّ ثوبه ، غير أنه أحجم وفي نفسه أنّ ثوبه لا يصلح لذلك لشدة اتساخه .. لذلك ، مدّ يديه وبعسر ،قطع قطعة من ثوب الزبرقان ، ومرّر بها يده يمسح جراحه ، وهو يقول:

- أنت تشبهه كثيرا ..لكأنّكه..

وتمتم الزبرقان بصوت خافت وهو يتوجع :

- أعوذ باللّه .. السجّان ؟

قال الشيخ :

oubeikandil.com

- لا ..لا .. حاشاك .. بل جارنا الـذي فـي الزنـزانـة المجـاورة .. قضـى سـنين طويلـة يقـارعهم ويناجشـهم ، لا يكـلّ ولا يمـلّ .. وبكثـرة تعذيبهم له أقعدوه عن الحركة ، لكـن يمكنـك بـين الحـين والآخـر أن تسـمعه يقـرّعهم ويسـمعهم مـن أوصـافهم مـا لا يحبـون ولا يرغبون..

قال الزبرقان وقد تهلل وجهه وأشرقت بين الجراح والكدمات ابتسامة عربية صافية :

- قارعهم لسنوات ولم يضعف ؟ ..

وهزّ الشيخ رأسه بالإيجاب.. فزاد الزبرقان :

- حياه اللّه من أسد هصـور..ديـنٌ علـيَّ أن أقبّـل رأسه إذا لقيته..

قال الشيخ :

- ستفعل في الآخرة ربما .. لكـن هنـا .. لا مجـال إلا للفراق ، وكل يوم تـودّع زنزانـة أسـيرا..أمـا

obeikandl.com

اللقاء فمن الكلام الذي أتينا به مـن هنـاك مـن مضاربنا وديارنا ، ولا مجال ولا مكان له هنا ..

واسـتدار الزبرقـان بوجهـه إلـى القضـبان فـرأى السجان ينظر إليه بعينين حاقدتين ، وما كان منه إلا أن الـتقط صـحنا قريبـا ورمـى بـه باتجاهـه .. مشـيرا بقبضـته فـي شـبه تهديـد .. بينمـا ضـرب السجان كفه بعصاه مشيرا إلى العذاب..

obeikandl.com

obeikandl.com

الحلقة السابعة

المشهد الأول :

كان الليلُ قد أرخى على الصحراء سدوله ، مؤذنا للنجوم ببدء عرسها ..

في تلك الساعة كان جواد جميل يهزّ السكون بوقع حوافره ، عائدا إلى الحيّ .. والليل للفرسان فرصة للتميّز ، والخروج من حياة البشر والأُنس، ودخول عالم الرهبة ، حيث السكون الذي لا يقطعه غير عواءات الكهوف ، وأصوات الجنّ في القفار الموحشة والأودية الخالية..

وأوبة فارس من رحلة صيد ، تعني أن يكون محملا بالغنائم.. وكذلك كان حال جميل حينئذ وهو يقترب من الحيّ بالقدر الذي يسمع فيه نباح كلابه ..

وفجأة ..مزّق الظلامَ سهمٌ نحو صدر جميل ..وتوجعت الصحراء بجرح آخر للغدر..وعضّ الفتى

obeikandl.com

بين نواجذه سَوْرَةَ الألم .. وغامت بين عينيه طلاسمُ تداخل فيها الوهم والحقيقة، وشعر بالغثيان ،وتلبسته حال من الوهن،دون أن يفلت لجام جواده ..

وعلى الضوء الخافت للهلال الذي لم يبلغ نصف قمر،ورغم ما اعترى بصره من الغبش ، أجال الفتى الجريح عينيه في المكان ، بحثا عن مصدر السهم ..لكنه لم يهتد إلى شيء ..وواصل السير إلى الحيّ ..

كان بين البارعة وأختها وابنة أختها حينذاك كلام نسوان ، مما يُهمس به..ولم يقطع حديثهنّ سوى الجلبة الخفيفة التي أحدثها جواد جميل..وقد علمت البارعة أنّ ابنها قد عاد من رحلة صيده،فخرجت إليه تستقبله وتأخذ منه ما أحضره من صيد ، كما هي عادتها في ذلك ..

obeikandl.com

لكنها ما كادت تراه على حاله تلك والدماء تخضّب ثوبه ، حتى مزّقت هيبة الليل وصمته بصرخة من فؤادها ..ضمّنتها كلّ ما تحمله في قلبها لهذا الغريب الذي هو وردة عمرها ورفيق حياتها ورائحة والده لديها..

وخرجت ليلى وابنتها مسرعتين ، تساعدان البارعة في تسنيد جميل .. وأهون عند امرأة تسنيد جبل من تسنيد رجل تحبه وتراه أعظم من جبل..

ودخل التميميّ خيمته بين أمّه وخالته جارّا رجليه،بينما لم تتوقف والدته عن البكاء ،وكانت يدها تسيح مرتبكة فوق صدره باحثة عن جرحه .. دون أن تكفّ عن سؤاله عمّا وقع له.. كانت ابنة خالته تتبع مسنّدتيْه ، مذهولة مرتبكة ، تمدّ يديها تحاول المشاركة ، لكنها سرعان ما

openkanali.com

تقبضهما تحرّجا ..وقد بدا عليها الارتباك ولعب الخوف في عينيها ..

وكان جميل رغم ما هو فيه، يحاول الابتسام ليطمئنها ، وهو يقول :

- لا تخافي يا أماه ..جرح بسيط من سهم أتى به الليل الأعمى..

وتبادلت الأختان نظرتين على عجل ، ولعل البارعة قد فهمت ما رمى إليه ابنها بقوله ذاك ..

وما كاد جميل يأخذ مكانه على فراشه ، حتى سرت في الحيّ جلبة ، واقتربت أصوات رجال ونساء من خيمة جميل، وارتفع صوت يسأل :

- ما الأمر يا أمّ جميل ؟

وخرجت البارعة ، تجيب السائلين الذين اجتمعوا أمام خيمتها تلك الساعة :

- سهم من سهام الليل أصاب جميلا في صدره..

قال أحدهم :

obeikandl.com

- أوتستدعي حاله إحضار الطبيب؟

قالت البارعة :

- هو في أسوإ أحواله ، مغمى عليه.. لا يكاد يصدر منه غير الأنين ..

وجرى رجل منهم وهو يقول :

- سأحضر الطبيب إذن ..وريثما أعود به ، حاولي أن تكشفي عن الجرح وأن تدفّئي بعض الماء..

المشهد الثاني:

لم يفتح الحيّ عينيه صباحا ، إلا وخبَرُ التميميّ في كلّ بيت وفي كل مجلس..وعادة يكفي ضِرسُ بخورٍ في تبخير حيّ كامل كهذا الحيّ ،هوازن ..

وقال بعضهم إنّ عيونا للفرس كانت تراقب الحيّ هي من فعل ذلك ..

بينما تحدثت نساء بما أذاعته إحدى اللواتي كنّ مع الرباب في مجلس حشو الوسائد ، من قولها عن التميميّ : (لو كان الأمر إليّ لأمرت راعيا من

obeikandl.com

رعـاة الحــيّ فرمـاه بسـهم شـقّ بـه قلبـه فلقتـين ..)..ولعلها تكون هي من دست للتميمي مـن رمـاه ..

وقـــال آخـــرون إنّ الفاعـــل لا يعـــدو أن يكـــون الكاسر،وليس مـن الغريـب أو المسـتبعد أن يفعـل ذلـــك بعـــد أن ذاق مـــرارة الهـــوان تحـــت ســـيف التميمي..

بينمـا أخـذ شـيخ القبيلـة السـهم الـذي انتزعـه الطبيـب مـن جـرح جميـل ، وقـال : (بـاري السـهم ليس متمرسا ، ولكأني أعرف بعض مَن هذا مبلغه في بري السهام) ..

كانت التهمة تطير من رأس إلى رأس ..تكون في الصباح أشـد مـا تكـون ضـدّ الربـاب ، ثـم لا تلبـث مساء أن تعود إلـى عيـون مـن الفـرس مـن الـذين يراقبـون الحـيّ، لتعـود فـي مجـالس السـمر لـيلا

لتستقر ضدّ فاعل من حيّ من أحياء العرب ، له ثأر أو نقمة..

وكانت البارعة تستمع إلى ما يصلها من كل تلك الأخبار والتخرصات ، فتزداد خوفا على ابنها المتمدد أمامها بين الحياة والموت ولم يبق منه إلا قدر ظمإ حِمارٍ ، فللموت منه صفرة وجهه وغيبوبته وحرارته وأنينه، بينما ليس للحياة منه سوى أنفاسه المتقطعة..وكانت أمه تعوّذه وهي تمرّر الخرقة المبللة بالماء على وجهه..دون أن تكف عن البكاء ، وعن الاقتراب منه وشمّ ثوبه بين الحين والحين..

أما خالته ليلى ، فلم يكن حالها بأحسنَ من حال أختها ، والخالة أمٌّ ..وأمّا خزامى فكانت تتمنى أن تكسر كل الحواجز كما تفعل مهرة جموح ، وأن تكون هي من تحمل تلك الخرقة ، تمسح بها ذلك الوجه الذي تبدو الرجولة في قسماته بكل ما لها

من الهيبة والقوة والسطوة..ولم تكن البارعة بالتي تخطئ في قراءتها لعيون ابنة أختها ..رغم اجتهاد خزامى في صرف عينيها عن عيني خالتها، لئلا تكشف ما بهما لها..وكان مما عرفته البارعة في صغرها أنّ للخوف والغيرة عيونا واسعة لا تخفى .. وقد اتسعت عيون خزامى من خوفها على ابن خالتها بما يكفي ليكشفها لدى خالتها..

واغتنمت خزامى فرصة غياب والدتها وخالتها أمام الخيمة في بعض شأنهما ، واقتربت من الأسد الجريح ، وتأملته ، قبل أن تسقط عليه من عينيها دمعتين .. تململ لهما .. ولتقول هامسة :

- (ليت هذا الجرح كان في صدري أنا أيها الغالي .. ليته مزقني دون أن ينال منك خدشا .. لقد كنتُ في راحة بال قبل أن آتي إلى هنا ..وليت خطاي ما مشت نحوكم ولا ساقتني ريح أقداري إليكم .. وقد جربت ما يفعله السهم

obeikandi.com

في الصدر يا ابن خالتي .. وكلانا مصاب جـريح يتـألم .. والفـرق بيننـا أنـك لا تعـرف راميـك ، بينما أعرف أنا راميَّ..).

كانــت الفتــاة تهمــس بــذلك مغمضــة العينــين ، متأثرة ، تقطـر رموشـها دمعـا .. وأصـابها الـدوار ، حين فتحت عينيها ورأت التميميّ ينظـر إليهـا وقـد صحا من غيبوبته ..

ولــم تــدر مــا الــذي يجــب أن تفعلــه .. ولــم تكــن متأكـدة أنـه سـمع كـلّ مـا قالـت ، لكنهـا لـم تكـن متأكدة أيضا من أنه لم يسـمعه .. ولبسـها ارتبـاك واضطراب ، وجرت ذات اليمين وذات الشمال كأنما تبحث عن شيء فـي الخيمـة، قبـل أن تهتـدي إلـى الباب وهي تصرخ :

- خــالتي ..يــا خــالتي .. لقــد فــتح عينيــه ..لقــد استفاق ..

وجـرت البارعــة وأختهــا ، وارتمــت والدتــه تشــمه وتقبّلــه بجنــون مــن اســتعاد مفقــودا عزيــزا بعــد يأس.. وبكت ..بكت بقـدر مـا اسـتعادت مِـن أنـس من قاسمها سـنوات حزنهـا وضـياعها ، وقـد ظنـت أنــه ســيتركها للوحــدة بعــد أن أَلِفتْــه ألفــة القلــب لنبضه..

المشهد الثالث :

تــأتي الأخبــار الكبــرى مجــزأةً ، موجــات موجــات .. كالمد والجـزر إثباتـا وتكـذيبا.. ومـرة أخـرى سـرى خبر إفاقة التميميّ من غيبوبته ..

وجاء شـيخ الحـيّ رفقـة بعـض أعيانـه ، لزيارتـه .. ووقف عليه يقول :

- (خيــرَ حالِبيهــا نطحــتْ)..وكــذاكَ هــو الفــارس الذي لا يقع الذباب على وجهه مهابة .. والسيف لا يقتـل الـذباب ، لكـنّ قلـب الذبابـة ضـعيف لا يقدر إلا على الغدر والدس لأمثال جميل..

وابتسم التميمي ، وهو يعلم جيدا أنّ الجريح إذا ابتسم أفقدَ جارحِيه نشوتهم ..

قال شيخ من الأعيان :

- قالوا قديما: من دعا أعمى استقبل ضيفين،ومن رمى عزيزا جَرَحَه جرحين..جُرحَ جسد وجرحَ قلب..ولا يهمّ الفارسَ جرح جسده ..

وكان التميميّ على عادته في الصمت ، وصمت أمثاله كلام فصيح كبير يجمد على الشوارب،لا يفهمه إلا الكبار ..وقد فهمه شيخ الحيّ ..

ولعلّ التميميّ كان في تلك الساعة يقول في نفسه :

رمَوْني مثلما تُرمى الأسودُ

أرادوا موتتي.. وأنا العنيدُ

رموْني في الظلام بسهم غدرٍ

كما ترمي مواليها العبيدُ

obeikandl.com

وما لي بينهمْ جَدٌّ رحيمٌ
ولا لي بينهمْ عَمٌّ يذودُ
وجرح القلب يبقى ألف عامٍ
ويهمدُ، ثمّ في ذكرى يعودُ
ورامي الأُسْدِ يندمُ إن رماها
وأخطأها ، وتقطعُه الأسودُ

المشهد الرابع :

متجمّدة وقفت الرباب على باب خيمة الضيوف .. وقد أذهلها ما سمعته من أخيها وهو يعنّف ابن عمّه وثّابا هامسا ..

- كيف يمكن لك أن تخطئه وهو على بُعد ذراعك لو مددتَه ؟

ويردّ عليه الوثاب :

- وما الضير ، وقد ضاع دمه في الظلام ، ضيعة قمر الشتاء .. ؟ وإن خبنا في هذه المرة فلن

obeikandl.com

نخيب في المرة القادمة .. والحرب سجال ..
رمية لك ورمية تخطئ ما أردت ..

وفاجأت الرباب الفتييْن ، وقد اقتحمت عليهما مجلسهما ، ووقفت تتأملهما بنظرات حادة ،دون أن تنبس بابنةِ شفة..قبل أن تستدير ، مغادرةً في شدة..

وتبعها أخوها الكاسر..واستوقفها يقول :

- أعرف أنك عرفت بأمرنا .. ولا أظنك ستبيعين أخاك وابن عمك الذي سيكون زوجا لك يوما ، بغريب ملحق..

ولم تقل الرباب شيئا ..فقد تفلتت منه وقد اعترض طريقها ..ومشت نحو وجهتها وفي قلبها أمواج متصارعة مصطرخة ..تتنازع فيها أخلاقَ كريمةٍ لسيّد القوم ، وحقدَ غريمةٍ للتميمي..

ebeilkandil.com

obeikandl.com

الحلقة الثامنة

المشهد الأول :

مــا كــاد المســاء يمــزج حبــاب الضــوء بحبــات الظلام،ليصنع منه غبش المغرب ، حتى حثّ شبح متسترٌ خطاه بـين بيـوت الحـي ، مسـتعجلا ،حـذرا يتلفّت ..

ومــا هــي إلا لحظــات حتــى أقعــى بجانــب خيمــة جميل،وأخذ في يده حجـرا ..ودقّ وتـد الخيمـة دقـا خفيفا يسمعه من في داخلها ..

وخرجت البارعة في حذر ، تقول :

- من الطارق ..

وجاءها صوت خافت ، يقول :

- أنا يا خالةُ .. طالبُ أمان ..وعندي لجميل خبر..

وعــادت البارعــة إلــى الــداخل تخبــر جمــيلا بــأمر الطــارق .. فأشــار إليهــا بإدخالــه .. وانــزوت خالتــه وابنتها في ركن من الخيمة مشيحتين عن الباب ..

obeikandi.com

oudeikanal.com

ودخل الرجل الذي لم يكن بعد أن كشف اللثام عن وجهه سوى (دخان) ..الذي بادر التميميّ بقوله:

- ما ألجأني إلى هذا إلا الاستبراء لذمّتي .. وتكذيبا لمن قال في الأمثال إن الطوال النحيفين مثلي لا ذمة لهم ..

وابتسم جميل ، بينما كتمت النساء ضحكاتهنّ بأيديهنّ وأطراف خُمُرهنّ ..

وقال جميل :

- ومن هذا الذي قال إن طوال القامات في نحافة لا ذمة لهم؟..

فردّ دخان :

- لا أعرف من قال ، لكنّ (ليلا) صديقي كثيرا ما ردّد على مسامعي هذا المثل .. ولا شك عندي أنّ قائل هذا المثل قصير ذو عرضين.. وتبا لليل ..فما لهذا جئت..

قال التميمي :

- ماذا عندك يا دخان ؟

قال دخان وهو يلتفت ، ثمّ يهمس لجميل بما سمعته النساء في الخيمة :

- أأنت مستوثق من هؤلاء النسوة ؟ وهل أمّك ثقة عندك ؟

وعاد جميل إلى الابتسام ، وعادت النسوة إلى كتم ضحكهنّ .. بينما قال دخان :

- لقد شهدتُ منذ يومين مجلسَ سمَر للكاسر ووثاب ورهطٍ أتبٍّ من أبي لهب .. ورغم دخان الشواء ، إلا أن الدخان الذي هو أنا استطاع أن يسمعهم وهم يتواصون بالكيد لك ، وقد أوكلوا الأمر إلى وثّاب.. ولا يغرنّك بعد هذا طولي يا تميميّ ، فروحي في منخاري ، وأنا أموت من عطسة.. وما يخدشك من السيف

يقطعني لنحافتي ..ورحم الله من خاف على شَعره من الجزّ ..

قال جميل:

- أفهم قصدك يا دخان .. وأنا أُكبِرُ فيك شهامتك..

قال دخان :

- لا شهامة ولا هم يحزنون ، هي غلطة مني في لحظة حرارة ، ولو استقبلت من أمري ما استدبرتُه منذ ساعة ، لما جئتك .. فخّار يكسر بعضه بعضا.. وما دخلي أنا ؟..

وانصرف دخان محاذرا متلفتا ..بينما غرقت البارعة وضيفتاها في ضحك طويل ..أما التميميّ فكان يضيّق عينيه وهو ينظر إلى السقف ، يفكّر في ما قاله دخان مما كان من أمر الكاسر ووثاب..

oubeikan.com

المشهد الثاني :

في تلك الليلة الصيفية الهادئة .. نام جميل وفي أذنه كلمات خزامى التي سمعها منها عند استفاقته من غيبوبته ، أو لعلها هي التي كانت سببا في استفاقته منها.. ، بينما جلست أمه تحدث ابنة خالته على ضوء القمر أمام الخيمة ..

قالت البارعة وهي تتأمل النجوم :

- كيف ترين جميلا يا خزامى ؟

وارتبكت الفتاة ، وأجابت متلعثمة :

- ككل الرجال ..أقصد كأنه أخي .. لا.. لا .. إنما قصدتُ ..

قالت البارعة :

كان والدي يقول :

- إذا تلعثمت المرأة فذاك يعني أن شياطينها قد أوحت إليها بأن تكذب..أما جدتي (فريعة) فكانت تقول : إذا تعلثمت المرأة فذاك يعني

oobeikan.com

أنها عرفت ما يجب عليها أن تقوله لكنها ترغب عنه إلى قول غيره..

وأطرقت الفتاة إلى الأرض ..

وأضافت البارعة:

- يقولون : إنّ أولى علامات الصبابة في الرجل الخجل ،وأولاها في المرأة ،الجرأة .. ولا أرى في عينيك يا ابنة أختي غير جرأة لبؤة قابلت من الآساد من ملأها حتى فاضت من عينيها..

ولا يفهم المرأة كالمرأة ..أما الرجال ، فأربعة أصناف منهم لا يفهمون المرأة : الأطفال الصغار،والشباب ، والكهول ، والشيوخ ..

قالت خزامى وهي تتعجب من خبرة وحكمة خالتها:

- وما الذي بقي من أصناف الرجال ممن يفهم المرأة إذن يا خالة ؟

قالت البارعة وهي تقوم :

obeikandl.com

- التميميّ ..التميميّ يا ابنة ليلى.. يفهم المرأة رجل كثير الصمت..

ودخلت البارعة الخيمة ، تتبعها ابنة أختها .. بينما اختلط نباح كلاب الحي، بعواء ذئاب وضباح ثعالب قادم من بعيد .

المشهد الثالث:

فرك الحيّ عينيه ..وارتفعت الشمس عن الأفق مقدار رمح..وأقبل الضحى.. ومالت الفصال إلى ظلال أمهاتها من الرمضاء.. وجرى الصبيان بين الخيام ينادون :

- إلى خيمة التميميّ ..إلى خيمة التميميّ.. شيخ الحيّ يريدكم هناك ..

وتهامس الناس ، بين من يظنّ أن سوءا قد أصاب التميميّ جراء إصابته .. وبين مرتاب كالكاسر ووثاب وغيرهما من أن يكون أمر الكيد للتميمي

obeikandl.com

قد انكشف .. وتحركت الخطى نحو خيمة التميميّ ، ليجدوه على فراش له في ظل الخيمة وإلى جانبه شيخ الحيّ وأعيانه..

قال شيخ الحيّ :

- وقد طلبتكم هنا لأنّ المريض يؤتى ولا يأتي .. وحين يكون المريض مصابا ظلما وغدرا، فهو كما قالت العرب : (كالكعبة ، تُزار ولا تستزار) .. حتى ينصفه المنصفون..وما كان لهوازن أن تتمالأ على ظلم رجل حلّ بها ضيفا متعلقا برحمٍ ورحمة الخؤولة.. والخال والد ..

قال الكاسر مستبقا ما حزر أنّ والده قد جمع الناس لبيانه :

- وما الذي نملكه يا والدي لكي نردّ كيد فارس وقد أصاب رامٍ منها خطأً مَن ظنّ أنه منا..من هوازن؟

ونهرَ شيخُ الحيّ ولده مقاطعا:

obeikandl.com

- صهْ يا هذا .. فالعيون لا تفضح نفسها برمي رجل في الظلام .. وأنا أعرَف الناس بسهام الفرس..

وبشدةٍ حسرَ شيخ الحيّ كمّ ثوبه عن ذراعه،وكشف عن ندبة لجرح قديم ، وأضاف:

- هذا الجرح يعرف سهام الفرس منذ نصف قرن..خمسين سنة ..

ثمّ أخرج من جيبه السهم الذي أصيب به التميميّ وقال :

- هذا السهم الرديء ليس من سهام فارس ..إنّ الذي براه لا يحسن الإمساك بالمدية في بريه.. والغادرون عادة هم الذين لا يحسنون الإمساك بالسيوف والمدى ..وما لعنت الصحراء العربية كغادر .. ما عُرفَ الغدرُ عند نبيل شهم ولا عند ذي مروءة..وما هو إلا مما داخل أحياء العرب وتشرّبه أنذالها من أخلاق فارس .. الغدر للفرس ، والتستّر

على المُدى تحت الثياب لطعن الظهر من أخلاق الفرس.. أما العربيّ فصريح ظاهر، فما الذي ستقوله عنا العرب بعد هذا ؟

وتنادت أصوات من جموع الناس المتجمعين أمام الخيمة :

- ومن الفاعل يا سيّد الحيّ..؟
- أخبِرنا لئلا يكون الغدر سنّة باقية ..
- يجب أن ينكشف الفاعل ليكون عبرة ..

وقال شيخ الحيّ :

- على رسلكم يا رجال ..فلست الذي يعلي الباطل ويخذل الحقّ.. وسأخبركم ..

وتململ التميميّ في مكانه متوجعا ، وهو يقول بكلام متقطع وأنفاس تصدر بعسر:

- إنما أراد شيخ الحيّ أن يقول إنّ الفاعل قد يكون منا وقد يكون من حيّ آخر من أحياء العرب..وأيا ما كان الأمر .. فإن صاحب هذا

oueikanal.com

السهم ينبئ عن رداءته رداءةُ برْيه ،والنساء وهنّ نساء يعيبهنّ عند العرب سوء بري السهام، ولئن عجز أحدهم عن بري سهم وتريبشه بما يليق..فهو عندي أقلّ شأنا من أن أموت برميته الماضية أو أهتمّ برميته المقبلة ..ولو كان السيف يقتل الذباب لفعلتُ ـ لكنْ لقتل الذباب طرق أخرى، فليحذر الذبابُ ..وأنا القائل:

ورامي الأسدِ يندمُ إن رماها

وأخطأها ، وتقطعُه الأسودُ

قال التميميّ ذلك وعيناه لا تفارقان الكاسر ووثابا.. ما جعل الكثير من أهل الحيّ يدركون مقصده ..

وأدرك شيخ الحيّ ما أراده منه التميميّ من الإمساك فأمسك..

Ol Kanai.com

المشهد الرابع :

انحنت الرباب أمام والدها وأمها وهي تقدّم لهما الطعام ، قبل أن تجلس معهما ..ثم لتلحق بها أختها معاذة ببعض الماء..

وقالت أمّ الرباب :

- ما من يوم يمرّ إلا وهذا التميمي يزداد عظمة في عيني .. لكن هل عرفتم الفاعل يا أبا الكاسر؟

قال شيخ الحيّ ساخرا:

- أبا الكاسر ؟ كاسر ماذا ؟ كاسرُ ما عشتُ أقيمه في الحيّ ؟ اسألي ابنتك لتعرفي الفاعل ..

وأطرقت الفتاة إلى الأرض ، وقد التفتت إليها والدتها وهي تقول:

- أأكون آخر من يعلم يا ابنة أبيها؟ ما أكتمكم يا أهل هوازن ، حتى لكأن الذي قال (أكتم من الأرض) قد قصدكم ..

obeikandl.com

ولم تجب الرباب بشيء .. لكن صمتها ذلك جعل أمَّها تخمّن أن الكاسر هو الفاعل .. فقالت وهي تضع يدها على صدرها تكتم دهشتها:

- أهو الكاسر ؟ ما دمتم قد صَمَتّمْ فهو الكاسر..ويْلمِّهِ ويا لعاره ،كيف يفعل ذلك وهو الذي يعلم أنّ ذلك معيب في أعراف العرب وأخلاق الفرسان؟

وردت عليها ابنتها معاذة :

- الكاسر أمرَ بذلك ، والوثاب رمى ..

قال شيخ الحيّ ساخرا :

- جرحاه وقتلا نفسيهما بغيرة النساء هذه..

قالت معاذة :

- لو كانت النساء يحملن السيف لـ ..

وقاطعها والدها قائلا :

- ومن أوهمك أن النساء لا يحملن السيوف ؟ هذه سيوفهنّ ..

obeikandi.com

وأشار إلى لسانه وانتصب قائما ، ثمّ غادر وهو ينفض أذيال ثوبه في غضب واستياء..

obeikandl.com

الحلقة التاسعة

المشهد الأول :

مرت الأيام سريعة ، وأقبل الخريف ، وهبت معه نسائم الشّعر ، وتحركت قوافل حجيج العرب نحو الكعبة من كل حدب وصوب .. وكان مما أضمره جميل هذا العام أنه سيزور سوق ذي المجاز الذي كان انعقاده في العادة خلال الأيام الثمانية الأولى من شهر ذي الحجة،قريبا من جبل عرفات.. تيسيرا لسير الحجاج بعده إلى حجهم..

أسرّ التميميّ تلك النية في نفسه لأشهر ، ولم يبدِها لأحد ،سوى لوالدته التي أعلمها بالأمر منذ يومين.. وهاهو ذا والوقتُ سَحَر ، يحزم متاعه،ويركب بعيره..ميمّما وجهه شطر بيت اللّه الحرام..

obeikandl.com

وودعت البارعة ابنها مع بعض أخواله ،وفي قلبها عصفور يضرب ضلوعها بجناحيه في جزع وخوف.. وكان في نية البارعة أن تنتقل للعيش في بيت أخيها أُسَيْد أيام غياب ابنها..

شيّعت الأمّ ابنها بعينيها ، وحين غاب في الظلام،أرسلت عقبه تنهيدة طويلة وقالت :

- صاحبك اللّه ..

ثم زادت :

- قلبي عليك يا هذا الذي يذهب وحيدا ويأتي وحيدا ..

وأحس أخوها أسيد ببعض حرقتها ، فقال يشدّ من عزمها :

- ككل ذئاب الليل الشرسة يا أخيّة ..ككل ذئاب الغضا ليلا ..وأشرس الذئاب ذئاب الغضا..

obeikandi.com

وهزت رأسها .. ودلف الطيفان إلى الخيمة ، بينما كان الفتى الذئب يقطع قلب الظلام في هذا الوقت ليصنع منه طريقه نحو عرفات الخير..

المشهد الثاني :

ما كاد النهار يطلع حتى نقل الركبان إلى أحياء العرب ، نبأ إغارة الفُرس على حيّ كنانة..وكان مما ساقته الريح من أخبار ، أنّ الفرس قد أثخنت في أهل الحيّ ، وقتلت منهم من الرجال والأطفال والنساء ليلا وعلى غرة ، ما يملأ واديا .. وما كان لذلك من سبب سوى أنّ حاكم الفرس كان قد أرسل رسلا إلى شيخ كنانة يطلب منه أن يرسل له أجمل فتاتين في الحيّ .. وبعد أخذ وردّ وصراع بين داعي الشرف وداعي السلامة ، قرر شيخ الحيّ أن لا يستجيب لطلب ملك الفرس المستهتر

obeikandl.com

الــذي عــاث فســادا فــي أعــراض ودمــاء الأحيــاء العربية..

ومـا إن بلـغ مِلِـكَ الفـرس خبـرُ عصـيان الكنـانيّ لطلبــه ، حتــى جهّــز جيشــا مــن مئــات المقــاتلين الأشـدّاء ..ليقـعَ علـى الحـيّ وقـوع الطامـة التـي لا تبقي ولا تذر..

وكان مما فعله جنود الفرس بشيخ الحيّ بأمر مـن ملكهـم ، أن حلقـوا شـعر رأسـه ولحيتـه ، وصـلبوه على عمود ، وأمهلوه شهرا ليرجع عن رأيه،وليعلن الطاعة للملك ، عبر إرسال أجمل فتاتين فـي حيـه ، وأن يرافــق الفتــاتين بنفســه إلــى بــلاد فــارس ليهديهما للملك ..

ولم يفعل كبير الفرس ذلك بشيخ قبيلة كنانة،إلا ليجعلـه عبـرة لغيـره ، إمعانـا فـي تخويـف شـيوخ القبائل وسادة الأحياء ، منعا لهم من التمرّد ..

obeikandl.com

كانت الجثث الدامية منثورة بين خيام الحيّ انتثار أوراق الخريف ، وكان شيخ الحيّ يئنّ على عموده ،وقد مال رأسه يسارا على كتفه ، بينما هرع بعضهم إليه لفكّ وثاقه وإنزاله..

حين بلغ القوم بشيخ كنانة إحدى الخيام ، التفت إلى جانبه فرأى سيفا مرميا على الأرض ، فتناوله يتأمله ، ثم تفل عليه وهو يقول :

- تبا لك من سيف .. وتبا لكل سيوف العرب التي ما طرقها حدادوهم إلا وفي نيتهم أن مقابضها ستكون في أيدٍ عربية ، تماما كما ستكون ذؤاباتها في جراح أجساد عربية.. تبا لسيوف العرب حين تترك جنود فارس لتناوش أبناء أحياء العرب .. هذه سيوف مجنونة لا يبلغ بها حاملوها سوى ما أنا عليه من الذل والهوان..

قال ذلك ، ورمى السيف بعيدا وهو يقول :

obeikandl.com

- عصا مبصرة تعرف طريقها جيدا ، خير من سيف أعمى يضرب خبط عشواء..

المشهد الثالث :

انتصف الطريق بهذا الفتى الراكب ،وأجهدته الوعثاء .. وقرّر وقد رأى هذه الخيمة على طريقه ، أن يميل إليها فيبرد كبده الحرى ببعض ماء بارد ..وفعَلَ...

وكان ظنه أنْ يستقبله أهلها قبل نزوله ، على عادة العرب في معاجلة الضيف بالترحيب .. وحين لم يلقَ من ذلك شيئا ،ولم يرَ غير عنزات قرب الخيمة ، أوجس ريبة ، ورفع صوته :

- يا أهل هذه الدار .. السلام عليكم ..

وجاءه من داخل الخيمة صوت امرأة يردّ السلام ..ويسأله :

- من أي أهل الوبر أنت ؟

obeikandl.com

قال :

- تميميّ، أقيم في حيّ أخوالي هوازن ..

قالت المرأة :

- يا سبحان سائق الناس إلى الناس.. أوَحين استحال المجيء إليكَ جئتنا..؟

قال التميميّ مستغربا ، يقلّب كفيه ، ويرفع كتفيه ، ماطّا شفتيه :

- ماذا تقصدين يا حرة ؟

ولم تجبه المرأة .. لكنها غابت لحظات ، ثم أخرجت له من جيب بالخيمة ، طستا من فخار..

وأخذ التميميّ الطست ، وإذا فيه حليب .. وشرب كأطول ما يشرب الظامئ ، لينحسر الحليب عن شيء، تلمّسه الفتى فإذا هو خاتم من فضة .. نُقش عليه (506)..

obeikandl.com

أخذ التميميّ الخاتم يقلّبه ، قبل أن يعيده في الإناء ، ويعيد الإناء إلى المرأة من خلال جيب الخيمة ، وهو يقول :

- بوركت يا أمة اللّه .. وفي الحليب خاتم وجدناه فيه .. وما كنا لنشرب القِرى ونأخذ ما أضعتموه أو وضعتموه فيه..

قالت المرأة:

- بل الخاتم لك ..

قال التميميّ :

- وكيف يكون لي ؟

قالت المرأة :

- أُخِذ زوجي أسيرا لدى الفرس منذ سنوات طويلة ، وقضى في الأسر سنوات طويلة ..تمكّن بعدها من أن يفلت ..ليعود أدراجه في حال يرثى لها ..عاش بعدها أياما قمت فيها على تطبيبه وخدمته ، قبل أن يلفظ أنفاسه

obeikandl.com

الأخيرة.. وكان مما استأمنني عليه واستودعه لديّ ، هذا الخاتم .. وكان حريصا على أن يوصله إلى أهله مؤديا أمانته فيه ، لولا أنّ الموت عاجله ..وكان حريصا في وصيتي بإيصال الخاتم إلى أهله .. وها أنت ذا ولم يمرّ على وفاة زوجي غير جمعة ، تسوقك أقدار اللّه لأخذ الأمانة التي أرهق حملها كاهلي..

ثم زادت المرأة :

من أيّ صلب أنت من تميم ؟

قال :

- أنا جميل بن بارق ، وأمّي البارعة بنت أصهب..

قالت :

لا كنتَ ابن أبيك إن لم توصل الخاتم إلى الحباب بن عمرو..

قال الفتى :

obeikandl.com

- الحباب بن عمرو .. ؟ ذاك جدّي لأبي ، وهو شيخ قبيلة بني تميم ..

قالت المرأة :

- سبحان الذي يسهّل الحَزَن ، ويسوق الحاجات إلى أهلها.. وكل شيء عنده بمقدار..

طوال طريقه إلى ذي المجاز ، كان جميل بن بارق التميميّ يقلّب الخاتم بين أصابعه ، يتأمله ويتأمّل نقشه الذي يرمز إلى قبيلة بني تميم ، باعتباره عددا للمعارك التي خاضوها ..

وليؤنس نفسه في ذاك السبسب المقفر من الطريق ، رفع صوته يقول ، فيما رددته الصحراء تطريبا وحداء:

يا خاتم السرِّ ..مَن بالحزن أولانا ؟

قل يا ابن عمّ..وأخبرني بما كانا

أنا وأنتَ أضعنا الدارَ من زمنٍ

ثمّ اجتمعنا بهذا الدرب إخوانا

آنَسْتَني يا غريبا قد أضاع يدا

اللّه أعلمُ منّا أينها الآنا

والقلبُ يفرحُ بالنسمات مغتربا

والمرء يأنس بالأخبار إن بانا

مازال عَوْدي إلى قومي يؤجّلني

فهل ترى عودكَ المحمود قد حانا ؟

obeikandi.com

obeikandl.com

الحلقة العاشرة

المشهد الأول :

في بني ثقيف..كان الصباح لطيفا ..وكانت تقف قرب خيمتها تمدّ يدها تستقبل حبات المطر الخفيفة النازلة من السماء ..ثمّ ترمي بعينيها بعيدا ، ويغلبها ما في قلبها فتتنهّد ... وهي ترى البرق يشقّ بسيفه الغيوم، فتهزّ عقيرتها بما يذوّب القلوب من صوتها الساحر :

يا برق يا برقُ أخبرْني ، فما العملُ؟
وكيف يفعل في النيران مشتعلُ ؟
يا برقُ سرْ شرق وادي العير في مطرٍ
فأسوأ البرقِ ما للغربِ يرتحلُ
إذا رأيتَ فتى مغرورَ مشيتهِ
سريعَ لفتتهِ إن قيلَ (يا رجلُ)
فقل له غرْبَ وادي العير آنسةٌ
ما عادَ خافقُها المسكينُ يحتملُ

obeikandl.com

تذوب شوقا ، وتقضي الليلَ باكيةً
للفجر نحوكَ خانتها بكَ الحيلُ
لا يعرف الشوقَ إلا من أصيبَ به
و شفّه الوجدُ في أعقاب من رحلوا

ولم تكن الحسناء عذبة الصوت سوى خزامى ابنة خالة جميل ، وقد حرّك فيها مطر الصباحُ وبرقه،ما تحرّكه البروق وأمطارها من أشواق المحبين .. وما تنفخه في قلوبهم من الذكريات ..

المشهد الثاني :

كانت ضجة ذي المجاز تستقبل التميميّ وقد دنا على جواده ، مشرئبا يتطلّع..
وما كاد يدخل السوق وينزل عن مركوبه ، حتى اختطفته الصيحات واحتوشه رغبات الكلام الجميل من كل جهة ..هنا ما يخطف الأبصار من السروج واللُجُم ، وهناك ما يسرّ من الأثواب

obeikandi.com

والدروع ، وهنالك ما يجذب القلوب ويسحر الأفئدة من الكلام الجميل ..

ووقف الفتى قليلا ، عند راو يحدّث المتحلقين به عن أيام العرب ، ثمّ سار مطوّلا عنقه ،رافعا رأسه كأنما يبحث عن شيء ما ..

ورأى خيمة حمراء ، فشقّ الجموع إليها .. وإذا هو بحَكَم الشعراء (شمّام الأفواه) ، ذاك الذي كان يقال عنه إنه يعرف الشاعر فقط من شمّ أنفاسه ..واقترب جميل من الحشد المجتمع على خيمة الأدم الحمراء ، واستمع إلى (الشمّام) وهو يوقف شخصا من بيته الأول ، ويقول:

((ما هذا يا هذا بالشعر ، فانصرف عن القريض إلى صنعة أخرى تكون أجدى لك) .. ثم ينصرف إلى غيره ، ليسمع منه ثلاثة أبيات ، وهو يقول : (هذا وأبيك الشعر ...)..واقترب جميل ، واستأذن

الشمّام في أن يسمعه شيئا ، وأشار له أن هات .. فقال :

يا ساريا نحو سوق الشِّعر في الظُّلَمِ
أنِخْ ، وصلتَ، وهذي خيمة الأَدَمِ
وسِرْ برهبةِ مَن يُدني لقاتلهِ
جِيداً ، ويرضى بـ (لا) في الحُكم أو(نَعَمِ)
واجلسْ إذا شمَّ شيخ الشعر مبتسما
وإنْ أشاحَ ، فخذ ما قالهُ، وقُمِ
فشمّ عينيَّ يا شيخي ،وشدّ يدا
على ذراعي ، تحسّ الشعرَ نصفَ دَمي
أنا التميميُّ ،مِن عينيَّ يفضحني
ما عند أكثرهم يبدو بشمّ فمِ

وما كاد الشمّام يسمع هذه الأبيات الثلاثة حتى تفل في يديه وحكهما ببعضهما وهو يقول:

obeikandl.com

- لو كان للشِّعر وسمٌ لَوَسمتك ..

ثمّ اقترب الشمام من جميل ، واستقبله ، وقرّب وجهه من وجهه ، يشمّ فمه وأنفاسه ، وهو يقول منتشيا وقد أغمض عينيه :

- لعمري إن لم يكن هذا شعرا فلن يكون غيره أبدا .. هذا بئر طيّب الماء .. وما عليك إلا أن تكثر من مَتْحِه ، إذ لا يجفّف الآبار غير قطع الدلاء عنها وإغبابها منها..

قبل أن يضيف :

- ألست تميميّا يا قليل كلامه ؟

قال جميل:

- بلى.. تميميّ وربّكَ..

قال الشمام :

- فيك مما وصفوا من رائحة أفواه أجدادك الفرزدق وجرير ، الكثير .. ولا يخطئُ صاحبُ

obeikandl.com

فراسةٍ شاعرا تميميا أبدا.. ليهنِكَ الشعر يا هذا..

وتهامس الناس ،ملتفتين إلى التميمي، وسرت في الموقف هينمة ، وقال كهل ضخم تبدو عليه مخايل النعمة والسعةّ، وعلامات العز والفروسية:

- ومن أيّ بني تميم أنت؟

فأجاب جميل:

- من أوسطها وأعلاها ..

وسُرّ الكهل بجواب الفتى ، ورفع حاجبيه ، وزاد:

- لا يعرف الناقد حقيقة الدعوى إلا بالعضّ على القطعة .. فهات :

قال التميمي:

- أنا جميل بن بارق بن الحباب..

قال الكهل :

- وأمك البارعة بنت أصهب ؟

قال جميل :

- هو ذاك .. لكن ...؟

وعرف شمّام الأفواه ما دار برأس جميل في تلك اللحظة ، فقال :

- على عارف أو على قريب وقعت يا هذا ..

وهزّ الكهل رأسه بالإيجاب وهو يقول :

- بل على قريب .. وأنا سدّاد بن الحباب بن عمرو التميمي .. عمّك أيها الفتى الذي ذاب في هوازن ، وبيننا وبين هوازن ما عرفَت العرب من العداوة والتباعد..

ونفض رجلان ، بدا أنهما من هوازن ، عباءتيهما ، ونظرا إلى الكهل نظرتين شزراوين،وانصرفا مغاضبيْن..

بينما هجم سدّاد بن الحباب على ابن أخيه ، يعانقه ويشمه ، وهو يبكي ، ويقول :

obeikandl.com

- يا رائحة الأسَد الغائب الذي لم أشمّ رائحته منذ أعوام..يا الحبيب بن الحبيب .. تتشرف بنو تميم بشاعر مُجيد مثلك ..

المشهد الثالث :

كانت البارعة تسند ذقنها إلى كفّها في تلك الساعة من الغروب ..تتأمّل حمرة الشفق في الأفق البعيد .. وتستعيد خيال ابنها ، ماشيا وراكبا ومبتسما .. وقد برّح بها الشوق إليه ، ولم تتعوّد قبل هذا فراقه لها ليومين متتاليين ..

ومِثلُه عند مثلها ، صبيّ صغير ، مهما كبُرَ واشتدّ عودهُ ..

وقد مضت على خروجه عشرة أيام .. ليس لها منه غير ما ترك في أذنها من كلمات ، وما أبقى لها من بسمات ، وما علق بروحها من نظراته الحانية في قوة ، والقوية في حنان ..

obeikandl.com

وكان أشدّ ما يؤلمها ما يلاقيه في هذا الحي من حقد وحسد ومكائد ، ورقّت لحاله وهو ينقّل سنواته بين هذه القلوب الحاقدة ، كما ينقّل حافٍ رجليه وهو يخطو بين العقارب ..

ولم تنتبه البارعة من أفكارها ، إلا وأخوها سعيد،يقف عندها ويبتدرها بالسلام، ويزيد :

- فيم تفكيرك يا أخيّة ؟

قالت :

- ومن غيره يا أخي يمنع عن عينيّ النوم ؟

قال سعيد :

- إن لم يكن قد ركب آيبا ، فهو يربط حمل الرجوع ..

وتنهدت وهي تقول :

- أخاف عليه وهو معي في خيمتنا ، فكيف وقد امتدت بيننا المسافات ؟

قال سعيد :

obeikandl.com

- أولـم تسـمعي مـا سـاقته ريـح الصـحراء مـن أخباره ، وما جاء بـه الركبـان ؟ أو لـم يقولـوا إنّ شمّام الأفواه قد شهد له بالشعر وأجازه وأعلـى من مقامه ؟ وقد سرى خبر هذا فـي حيّنـا وفـي بقيـة أحيـاء العـرب، سـريان النـار فـي الهشـيم ..ويا سعْد من سبقه مثل هذا آيبا..

قالت البارعة :

- وذاك ما يزيد من خوفي عليه .. كـل ذي نعمـة محسود ..وقد كان محسودا قبـل هـذا ، فكيـف به وقد ازداد ما يزيد من ضيق العيون عليه ؟

قال سعيد :

- كـان مهيـب السـيف ، والآن سـيكون مهيـب اللسان ..ويا ويح من قال فيه شاعر ما يعيبه ..

ثم زاد على سبيل الدعابة ، مسرّيا عن أخته :

- ليتـه يتحاشـى هجـائي أنـا فقـط ، وليقـل بعـد ذلك في غيري ما يشاء ..

وابتسمت البارعة ، فقال سعيد :

- وها قد ظهرت الشمس من خلف الغيوم .. لا أرانا اللّه غيوما ..

قالت :

- أوتدعو بالقحط والجفاف ونحن أحوج الناس إلى غيث؟

قال :

- لا كان المطر إن لم تكن الشمس ..

وزادت ابتسامة البارعة اتساعا ..

المشهد الرابع :

وقف سدّاد بن الحباب قبالة ابن أخيه، جميل ، ومدّ ذراعيه إليه ، يمسكه من منكبيه ، وهو يقول :

- هو الفراق إذن يا ابن أخي، وقد انتهى حجنا ؟

قال جميل :

- فراقٌ للقاءٍ يا عماه..

obeikandl.com

قال سدّاد :

- ولو طاوعتَني أيها الفتى العنيد كوالده ، لقفلتَ معي نحو ديار بني تميم ، ولكانت عودتي عرسا ، وكانت عودتك أعراسا .. وبنو تميم نحّارو جزور كما تعلم ..

قال جميل :

- قبّلْ عني جبين جدّي الحباب .. واذكرني عنده بخير .. وأعطه عباءتي هذه ..

وابتسم سدّاد مغالبا جزعه ، وقال :

- لا أظنّ تميما ستقبل بعد اليوم أن تستبقي فتاها هذا الجميل عند هوازن ..

وتعانق الرجلان بحرارة .. قبل أن يفترقا .. وألقى جميل رجله في الركاب ، بينما كان عمّه يراقبه وهو يقول :

- وثبة فارس وربّ الكعبة ..

obeikandl.com

الحلقة الحادية عشرة

المشهد الأول :

عائدا من حجه،غادر الفتى التميميّ مكّة.. واستقبلَ الصحراء الواسعة بقلب أوسع منها.. وقد أحسّ بالانشراح يُنبت له جناحين ، لو شاء لطار بهما ..

كان إحساس غامر يُشعره بالخفة ، حتى خيّل إليه أن نسمة ريح قادرة على أن تطيّره كريشة ،وأن تطرحه بعيدا..

كانت الوجوه تتزاحم في فكره .. وجه والدته ، ووجه عمه ، ووجه خزامى ، ووجه شمّام الأفواه،ووجه الرباب ..ووجوه أخرى كثيرة كانت أطيافها تتماوج أمامه ..

ولشوقه، واستعجالا للقاء أحبته في حيّ هوازن ، أغمض عينيه وملأ صدره من هواء ما يستقبل من الفجاج ..

غير أنه عاد فتذكّر عمّه ، وتذكّر بذلك غربته في هوازن ، فداخلته مسحة من الحزن،وأنشأ يقول:

سِرْ يا جوادُ، فإنّ الشوق أضناني
وليس لي بعد هذا القلب مِن ثانِ
للظاعنين، إذا مالت رواحلهمْ
قلبٌ يذوبٌ إلى اللقيا بتَحنانِ
وأنت ترجعُ مسرورا إلى وطنٍ
أما أنا فغريب دون أوطاني

ولم يكن لقاء التميميّ بعمه هيّنا ، فقد شوّش عليه فكره ، وفتح عليه أبوابا كانت مغلقة إلى حين .. وليس أسوأ القلوب ما يتأرجح بين وطن ومنفى ، فذلك يبقى رغم البعد يستريح إلى وجود وطن ، ولو بعيد أو مؤجل ..لكنّ أسوأ القلوب هو ذاك الذي لا وطن له يقابل منفاه ، أو ذاك الذي صغر في عينه وطنُه ،أو هان، فصار المنفى عنده بحجم وطن..وهو بذلك مصلوب فوق الهوة السحيقة الفاصلة بين وطنين يمزقانه إلى جزءين ..

obeikandi.com

وكذلك كان جميل ، فقد نشأ في حيِّ هوازن ، ولطول سنواته فيه دبَّ إلى قلبه سلوان ديار بني تميم، وهو شعور قاتل أشبه بسلوان القلب لمن مات من أحبة.. فهم رغم حبهم لا يحتملون أمل العودة ..

كانت غيوم السماء ، وقطرات المطر المتفرقة الخفيفة ، تنعش الصباح ، وتنعش معه قلب التميمي، رغم كل ما فيه من أمواج متلاطمة،وأطياف متداخلة..

وكانت شفاه الصحراء تردّد :

سِرْ يا جوادُ، فإنّ الشوقَ أضناني

وليس لي بعد هذا القلبِ مِن ثانِ

المشهد الثاني :

ومثلما سار جميل عائدا إلى هوازن ، فقد سار عمه عائدا إلى ديار تميم .. وما اختلفا إلا في كون الأول

obeikandl.com

قـد قفـل مفـردا ، أمـا عمـه فقـد كـان فـي ركـب مـن قومه..

كانت جيادهم وإبلهم تفارق البنيان في مكة،وترتمي فوق كبد الصحراء الخشنة..ولم يكد الركب ينـأى عـن ديـار مكـة متلفّتـا فـي محبـة ، كأنمـا تتشـبث قلـوب وعيون رجاله ونسائه بالبيت العتيق تأبى فراقه ،حتى أطلّت (بانة)، ابنة سدّاد بن الحباب من هودجها تسأل والدها بتردد الخجِل:

- من ذاك الذي أطلتَ في توديعه، بما لم أعهده منك إلا لمن هو منـك بمكانـة الابـن أو الأخ،يـا والدي ؟

قال والدها وهـو يبسـط كفّـه للقطـرات المتفرقـة من المطر،بينما عيناه نحو الغيوم:

- ذاك ابن عمّك ..

قالت :

- مَن قصدتَ من أعمامي ؟

obeikandl.com

قال :

- هـذا جميـل بـن أخـي بـارق .. لا تتذكرينـه لا شكّ..كنتِ صغيرة حين غـادر حيّنـا مـع والدتـه البارعة بنت أصهب إلى حيّ أهلها من هوازن ..

قالت :

- وهو إلى الآن مع والدته ؟

قال سدّاد:

ربّما نكون قد أخطأنا إذ نسيناه كل هذه السـنوات ..وما أنساناه إلا ما تعلمـين مـن علاقتنـا المتـوترة بهوازن ، وبغْضِنا لها.. وربمـا كنـا اعتقـدنا أنّ ممـا ينتقصنا به العربُ، أن نمدّ أيدينا إلى حَمَل لنا فـي فم ذئب هوازن..بل لو لم يكن حَملا ، وكان صـبيا من أصلابنا ، لما مددنا أيدينا نطلبه مـن هـوازن ، إن لم نستطع أن نفتكّه عنوة منها..

قالت بانة :

- أمه البارعة ..هل هي جميلة ؟

وابتسم سدّاد في مكر وهو يقول :

- ألم تريْه .. فيه من أمه الكثير ..أوليس جميلا ؟

وارتبكت الفتاة ، وحاولت أن تأخذ والدها إلى وادٍ آخر من أودية الكلام ، فقالت :

- ألا تخاف أن ينهمر المطر يا أبي ونحن في الطريق ، بلا سقف ؟

قال والدها لنفسه ،مُسِرّا :

- الماكرة .. أخذتْ منّي كلّ ما أرادت ، ولم آخذ منها نقيرا مما سألتها عنه ..هكذا هنّ من تربيهنّ نساء تميم ..أفباطلا قيل : (عليكم بنساء بني تميم)؟..لا تنجب نساء تميم سوى أُسُودٍ رآبيل ، أو حِسان ماكرات ؟

ورفع صوته يحرّك في النفوس همّتها ، ويستثير فيها عزتها ، يتمثّل قول جرير بن عطية الكلبي اليربوعي التميمي :

ألستمْ خير من ركبَ المطايا

وأندى العالمينَ بطون راحٍ ..؟

ثـمّ يقـول : هـذا أمـدح بيـت قالتـه العـرب ، فمـن قائله؟

وصاح القوم :

- جرير التميمي..

فزاد :

وأما أفخر بيت قالته العرب ، فقول الشاعر :

إذا غضبتْ عليكَ بنو تميمٍ

حسبتَ الناس كلّهم غضابا ..

فمن الشاعر ؟

وضجّ القوم :

- جرير التميمي..

قال :

- وأما أغزل ما قالت العرب ، فقول الشاعر :

- إنّ العيون التي في طرفها مرضٌ

- قتلننا ثم لم يحيينَ قتلانا

obeikandl.com

- يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به
- وهنّ أضعف خلق اللّه أركانا
- فمن القائل ؟
- قال القوم :
- جرير ..ومَن غير جرير ؟
- قال سداد :
- وقالوا إنّ أحسن بيت قالته العرب ، هو قول الشاعر:
- وطوى الطراد مع القياد بطونها
- طيّ التّجار بحضرموت برودا
- فمن القائل ؟
- قال القوم :

أيضا جرير .. وهل يقول مثل هذا غير جرير ؟

- قال سداد :

وقيل إنّ أهجى بيت قالته العرب ، هو قول الشاعر:

obeikandl.com

قومٌ إذا استنبحَ الأضيافُ كلبَهمُ
قالوا لأمّهمُ بولي على النارِ
قال سدّاد ذلك وهو يضحك منتشيا بفخر:
فمن القائل ، ولا تقولوا لي إنه أيضا جدّنا
جرير بن عطية اليربوعي التميمي ؟
- فردّ القوم وقد علت ضحكاتهم :
بل هو هو ..جرير التميمي..
وارتفعت ترنيمة جميلة من حاد رقيق الصوت ، دافئ التطريب :
إنّ العيون التي في طرفها مرضٌ
قتلننا ثم لم يحيينَ قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به
وهنّ أضعف خلق اللّه أركانا
وتمايلت بالنساء الهوادج ، بينما كانت بانة تحاول تجميع وجه التميميّ في فكرها ..

obeikandl.com

المشهد الثالث :

لم يرُع البارعة وهي منهمكة في ترتيب خيمتها التي عادت إليها اليوم ، استعدادا لرجوع ابنها ، إلا أصوات الصبيان وهم يجرون ، مرددين :

- عاد التميميّ..عاد التميميّ..

وتركت ما بيدها ، وجرت إلى الخارج ، يستخفها الشوق ويستعجلها هذا النبض المتسارع في قلبها...

واشرأبت ، تطيل عنقها ، تبحث عنه .. وظهَرَ لها .. وانفجرت بين جوانحها ألف عين للفرح، وجرت لا تلوي على شيء .. وكان يوزع بعض الحلوى على الصغار ، حين رآها قادمة تجري كطفلة صغيرة نحو والدها العائد بعد طول غياب..

ورقّ لها ، واغرورقت عيناه بالدمع ، ونزل عن جواده ، يستقبل اندفاعها بحضنه .. وأطلّت الصبايا من كوات الخيام ، وخرج الرجال ..وتوقفت

obeikandl.com

العيـون علـى البارعـة وهـي تبكـي بحرقـة يمامـة أفلتت الأحبولةُ فرخَها الوحيـد ..تحـت هـذا الـرذاذ الخفيف الذي يحيل المساء ساعة لطيفة منعشة .. وبعد أن ذهبت سكرة الموقف..وأراقت البارعة من دموعها الحارة ما أطفأت بـه لهيـب صـدرها..أقبـل النـــاس علـــى التميمـــيّ يحمـــدون لـــه عودتـــه ، ويهنئونه على ما سبقه إليهم من أخبار سوق ذي المجاز ، وما كان له فيه من إجازة على لسان حَكَـم الشعر،شمّام الأفواه ..وقد أظهروا له من الإكبار ما لـم يعهـده مـنهم ، ومـن التبجيـل مـا لـم يعرفـه فيهم تجاهه من قبل..

ورافقوه نحـو خيمتـه ، فـدخلها يقلّـب عينيـه فيهـا شـوقا ، بينمـا كانـت والدتـه تقلّـب عينيهـا فيـه شوقا،يبدو عليها الارتباك ..

قالت :

- ورجعتَ سالما غانما يا بؤبؤ عيني..

وابتسم جميل وهو يقول :

- هي دعواتك يا والدتي ، ما فارقتني قائما ولا قاعدا ولا راكبا ولا نازلا ..

ومسحت ما كان برَدَ فوق خدها من دموع وهي تقول ، وقد تحوّل رذاذ المطر الخفيف إلى زخات قوية، كأنما تُصَبّ من قِربة:

- وجاء معك الخير ..هذه بشرى لقلبي فديتك بروحي ..

وجرت إلى رفّ للزاد ، تحضر له طعاما أعدّته لمَقْدمِه وهي تقول :

- لا شكّ أنّ طول الطريق قد أضناك ، وأنّ زاد السفر قد قرّح جوفك ..وآن لك أن تلعق الأصابع بعد كلّ ذلك ببعض ما أعددته لك من ثريد ..

وجلس إلى جفنة الطعام ، وهو يقول :

oubeikan.com

- كنت أظنك تحسّين فقط بأوجاع قلبي ، أما الآن فقد أدركت أنك تشعرين أيضا بوجع جوعي..

وضحكا ..وهما يجلسان إلى الطعام..

obeikandi.com

obeikandl.com

الحلقة الثانية عشرة

المشهد الأول :

لم يكن شيخ حيّ هوازن ليفوّت فرصة الاحتفاء بجميل ، و قد نحر من الشياه ما جمع عليه رجالَ الحي ونساءه ، وهو ذا يملأ مجلسه بهيبته وبسطة وجهه .. وقد طلب التميميَّ فأدناه وأجلسه إلى جنبه..وقال :

- هذا يوم من أيام هوازن .. وقد نبغ فيهم هذا الفتى فروسية وإقداما وشِعرا .. ومن شهد له شمّام الأفواه ، ما احتاج بعد ذلك إلى شهادة غيره ..

وارتفع صوت من الخيمة ، يقول :

- وكيف لهوازن أن ترضى بأن يكون لسانها من غيرها وفي ذلك من العار والشنار ما سيلحقها أبد الآبدين يا عمّ.. ؟

والتفت الناس ...ولم يكن المتكلم غير الوثاب،خاطِبِ الرباب ، وقد اغتاظ الشيخ منه إذ

obeikandi.com

قاطعه ولم يستأذنه في الكلام، وبدا ذلك في وجهه..

وقال شيخ من أعيان المجلس :

- جميل منّا ، شمروخ من نخلتنا البارعة .. ومُهر من فَرَسنا ..

فردّ الكاسر متجاسرا ، وكأنّ أمرا قد دبّر بليل :

- إنما يُدعى الأبناء إلى آبائهم .. إلا إذا كانوا .....

ووثب التميمي يستلّ سيفه ..ووثب معه أخواله،أسيد وسعيد ، وأبناؤهما، وقال :

- أما وقد تجاسرتم على شرف امرأة هي منكم قبل أن أكون منها ، فهذا من وضاعتكم .. وما أنتم سوى من لا أناوشهم بسيفي إلا متكئا ..إذ لا يقوم الفارس إلا لفارس ..ولو أذن لي سيّد القوم،لأريت الناس فيكما ما يعيش معكما عارا إلى القبر..

وقال شيخ الحي :

obeikandi.com

- والله ما يمنعني أن آذن لك في مناوشتهما طِعانَ لسان أو سنان ، إلا علمي بأنهما لا يبلغان منك الكعب إذا قاما ..وما هذان باللّذين يدوسان على طرفٍ أو ذيل من شرف البارعة ، أو يغبّران على نعل ابنها ..

قال الوثاب :

- سلِ التميميّ يا عمّ إن لم يكن قد التقى ببعض بني قومه ، وبأحد أعمامه في ذي المجاز وفي الحج ، وقد جاءت الركبان بذلك .. فأي الأمرين نحمد له ، رجوعه بإجازة الشعر،أم لقاءه أعداءنا ؟

قال شيخ الحي:

- إن كان الفتى قد قابَلَ أعمامه حقا، فذلك مما يزيده عندي برّا ، والفارس لا ينكر آباءه ..

obeikandl.com

كان شيخ الحيّ يقول ذلك في غضب وحزم ، بينما كان أعيان الحيّ وشيوخه يهزون رؤوسهم بالإيجاب والتأييد..

قال شيخ الحيّ ذلك ، قبْل أن يقوم ، مادّا يده إلى شيخ وقور على يمينه ، مستلما عباءة ، فردَها أمام الناس فردا ، قائلا :

- هذه عباءة شاعر هوازن ، وهوازن جمجمة من جماجم العرب ، لا تُقرّ لغير شاعر فارس سيّد جحجاح.. وإن كان لا بدّ أن يمثّل التميميّ قومه ،وهم أبعد الناس عن أن يستغنوا عن شاعر مثله، فليكن شاعر الحيَّيْنِ، ولسانَ القبيلتين..

ثمّ مشى الشيخ نحو ابنه الكاسر وابن أخيه الوثاب،وهو يقول :

- هذه قبيلة حليمة السعدية ..ونحن مَن أرضع رسول الله صلى الله عليه وسلم ..ولا يليق بقبيلة أرضعت نبيا أن تكون مطففة في

obeikandl.com

الميزان ، أو حاكمة بغير قسطاس..وماذا تقول عنا العرب ؟ بل كيف يمكن أن نخون شعراء هوازن تحت الثرى ؟ كيف نخون مجنون هوازن، قيس بن الملوّح، وكيف نخون عامر بن الطفيل ، ولبيد بن ربيعة ، والنابغة الجعدي ، وليلى الأخيلية ؟ ولأجل من نخون كل هؤلاء ؟ لأجل غلامين ما استقاما على جوادٍ فارسيْن ، ولا على لسانٍ شاعريْن ، ولا على مروءة كبيريْن ؟

قال شيخ الحيّ ذلك ، ثم عاد إلى صدر المجلس يمدّ ذراعيه بالعباءة ،يضعها على كتفي التميميّ،الذي أطرق مليا ،كأنما استقبل ظهرُهُ حِمْلا ثقيلا،ثم،وصامتا لم تنبس شفتاه بكلمة ، فقط رفع يديه ، فسوى العباءة على ظهره،ثمّ مسح ما يلي صدره منها براحتيه ..

obeikandl.com

وابتسم شيخ الحي لذلك ، وابتسم الأعيان .. بينما انتفض الكاسر والوثاب ، وبعض أتباعهما وخلانهما،والرباب بنت شيخ الحيّ، مغادرين المجلس في غضب واستنكار..

المشهد الثاني :

حين ضمتهما خيمتهما مساء ، قالت البارعة توصي ابنها :

- لازلت أقول يا بنيّ ، احذر الكاسر ورهطه .. ففي أعينهم نحوك بريق لا يسرّ ..

ولم يقل جميل شيئا ، بل فتح وكاءَ جُلُبّان من جِلد ، وأدخل يده فيه مستخرجا شيئا ..وضعه في يد والدته..

ونظرت ، فإذا هو خاتم ..وما كادت تتأمله .. حتى اتسعتْ عيناها ، وركِبَتها دهشةٌ.. وأسرعت بكفّها إلى فمها تكتمُ ..

ولاحظ التميميّ ذلك ، فاقترب منها يسألها :

obeikandl.com

- ما الأمر يا أمّاه؟ .. ما الأمر؟

وتداركت المرأة أمرها ، مجتهدة ، ثم قالت :

- لا شيء يا بنيّ ..لا شيء البتة ..أو لعلها الذكرى وقد رأيتُ رمز قبيلتك على الفصّ..من أين أتيت بهذا ؟

قال :

- وجدته في طريقي إلى ذي المجاز ..

قالت :

- عهدي ببني تميم أنهم لا يضيّعون خواتمهم في الصحراء ..

قال :

- أعطتني إياه امرأة في الطريق ..

وانتفضت البارعة كالسليمة ، تقول :

- امرأة ؟ أي امرأة هذه ؟

قال ، وقد أدرك أنّ الفرصة سانحة ليمتحن فيها غيرتها :

obeikandi.com

- امـرأة تسـتأذن القمـر فـي أن تطـلّ بدلـه فـي بعض الليـالي ، دون أن يلاحـظ النـاظرون إلـى القمر أنه غيره ..

وأخذت البارعة بمجمع ثوب ابنها تشده وتقول في غضب :

- أي امرأة ؟ أجبني يا فتى تميم ..

ويعرف جميل مِن أمه أنها إن غضبت شديدا،سمّته فتى تميم ..

وزادت ابتسامته اتساعا وقال :

- ما أعظم غيرتك عليّ يا أمّ..

قالت وقد تركت ثوبه ، وهمت بالبكاء، مضطربة :

- ليس ذلك يا فتى .. أنت لا تفهم ما أعنيه ..

قال يهدئها :

- مررت في الطريق إلى ذي المجاز بخيمة ..

وقصّ عليها قصته مع تلك المرأة التي أخرجت لـه الخاتم في الحليب وأخبرته بخبر زوجها..

وما كاد جميل ينهي روايته ، حتى اصطرعت بين جانحيْ والدته بحار من الأفكار والوساوس.. بعضها أبيض ، وأكثرها في لون ريش الغراب ..

المشهد الثالث :

ولأنّ من عادة العرب الاستماع إلى ما تحمله الركبان من أخبار ، فقد كان لزاما أن يجتمع الكثير من رجال حي بني تميم ونسائه وصبيانه،أمام خيمة سيّد القوم ، الحُبابَ بن عمرٍو ..للاستماع إلى ما يحمله الركب العائد من الحج وذي المجاز ..

كان ذلك صبيحة الليلة التي وصل فيها سداد بن الحباب ومن معه إلى الحيّ ..

وقد بدا الصباح منعشا بعد أيام من المطر المتواصل ..

كانت قطعان الغيوم ، تندفع متباعدة في السماء،لتفسح مكانا للزرقة ..وكانت الشمس

obeikandi.com

تشرق حينا وتتوارى حينا ..كصبية محجوبة تطلّ من خبائها محاذرة ، بين ظهور واختفاء...

وقام سدّاد ممسكا بعمود من أعمدة الخيمة ،وكان مما قاله :

- ...وإنّ الأخبار من شمس ومن ظلام ، فيها الليل والنهار ..ومن الأخبار السيئة أنّ الفرس لازالوا يحملون بني تميم على محمل الحقد وانتظار الفرصة السانحة ليعيدوا الكرة في حربهم أو الغدر بهم ..وليس ذلك غريبا ، فبنو تميم أعداء كل عتل زنيم .. وهم أشد الناس على المسيح الدجال، وكل مسيح دجال ..وإن الفرس ما ناصبوا بني تميم العداء إلا لعلمهم بخطرهم عليهم ..

أما أخبار الشمس ، فأعظمها أنّ فتى وسيما،شاعرا رَكّابَ سُروج ، قد بَعث بهذا البُرد،وطلب إلينا أن نضعه بيد شيخ الحيّ حفظ اللّه عمود خيمته ..

واستدار سداد ، وسلّم والده بُردَ حفيده ..وأردف يقول :

- ولأنّ بني تميم منسوجون من شَعر خيامهم،فإنّ هذه الخيام تبقى تطلبهم إن نأوْا،وتشدهم إن غابوا ، وتشعل الشوق فيهم إن هاجروا .. وهذا البُرد لابن أخي.. بُرد جميل بنِ بارق بن الحباب .. وقد شاء اللّه أن لا يجمع علينا بينَ فَقْدِ الوالد وولده ..وقد قابلتُ جميلا في ذي المجاز ،في موقف يحسده عليه مَن شابَ في القريض، وهو الشاب اليافع ، إذ أجاز وأشاد بنبوغه شمّامُ الأفواه ، أكبرُ حكّام الشعر في قبائل العرب برمتها ..ويا لفخر تميم بابنها الشاعر الفارس.

وسرت هينمة..والتفت الناس إلى بعضهم،مستغربين أو فرحين مستبشرين .. وقال شيخ الحيّ ، وهو يلتفت نحو سدّاد مستغربا :

- أألصدقَ تقول يا سدّاد ؟

قال سداد:

- إن كنتَ تعرف رائحة بنيك يا أبي ، يمكنك أن تشمّ ثوب حفيدك الغائب لتجد ريحهُ..والآباء عادة لا يخطئون روائح أبنائهم ..

وقرّبَ شيخ الحيّ ثوب حفيده من وجهه ، وأغمض عينيه ، وراح يشمه .. قبل أن يقول في حزن :

- وليس غريبا أن يداوي ربُّ الكعبة في قلب والدٍ، جُرْحَ ولدٍ بحفيد ..والحفيد ولدٌ ..

ونطق عامر بن الحباب ، ليقول :

- لعمركَ إنها لأجمل بشارة يا سدّاد .. فهل لنا ببعض ما قاله ابن أخي في سوق ذي المجاز من شعره ؟

قال سدّاد :

- قال :

openkarai.com

يا ساريا نحو سوق الشِّعر في الظُّلَمِ
أنِخْ ، وصلتَ، وهذي خيمة الأَدَمِ
وسِرْ برهبةِ مَن يُدني لقاتلهِ
جِيدًا ، ويرضى بـ (لا) في الحُكم أو(نَعَمِ)
واجلسْ إذا شمَّ شيخ الشعرِ مبتسما
وإنْ أشاحَ ، فخذ ما قالهُ، وقُمِ
فشمّ عينيَّ يا شيخي ،وشدّ يدا
على ذراعي ، تحسّ الشعرَ نصفَ دَمي
أنا التميميُّ ، مِن عينيّ يفضحني
ما عند أكثرهم يبدو بشمّ فمِ

وبدت علامات الإعجاب على شيخ الحيّ وهو يستمع إلى شعر حفيده الغائب ..قائلا :

- لا فضّ فوه ولا ظفر به شانئوه ..

obeikandl.com

بينمـا ارتفعـت أصـوات القـوم فـي طـرب ونشـوة واستحسـان ..ولـم يقطعهـا سـوى مـا ربـا عليهـا مـن صوت عامر بن الحباب وهو يقول في حزم:

- لا يحســنُ ببنــي تمــيم أن تتــركَ فارســها وشاعرها هذا عند هوازن ..

وسرت هينمة أخرى بين النـاس ، تأييـدا لمـا قالـه عامر وموافقة لرأيه .. وهزّ شيخ الحيّ رأسـه وهـو يمسح عينيه من دموعهما، موافَقة لما قالـه ابنـه عامر..

oubeikandi.com

الحلقة الثالثة عشرة

المشهد الأول :

قـرب خيمتهـا ، تــدير المغـزل بيــد ، وتشــدّ ذيــل الصوف الممتـد منـه بيـد .. جلسـت بانـة ، وحولها بعض قريباتها وصاحباتها ، وقالت إحـداهنّ كأنها تستزيد من كلام بانة :

- هيهٍ يا بانة .. ثمّ ماذا ؟

قالت بانة في جرأة :

- كيف أشرح ذلك ؟ ألم ترَينَ القمر ليلة ؟

قلنَ :

- بلى .. بلى.

قالت :

- كـالقمر ، إلا أنّ علــى وجهـه مسـحةً مِـن حـزن قديم قِدَمَ الصحراء..

قالت إحداهنّ في مكر:

obeikandl.com

- وكيف يكون حزينا وله من بنات هوازن من تدلّل قلبه ، وتلمّعه برموش عينيها ، كما تلمّع إحداهنّ فصّ عقدها ..؟

واستدارت إليها بانة مثل لبؤة ، تقول :

- وما أدراك أنت بذلك ؟

قالت الصبية :

- ألست تقولين إنه مثل القمر ، وإنه ..وإنه ..؟

قالت بانة :

- بلى وكذلك هو فعلا ..

وضحكت حمانة ،ابنة عمرو ، عمّ بانة وهي تقول:

- فتى كهذا لا تخطئه سهام نساء هوازن ..ولئن كانت إحداهنّ قد تعلقت به من نظرة ، فكيف بمن يعشن مع القمر في حيّ واحد ، ويتأملن طلعته البهية كل حين ؟

قالت بانة بثورة لبؤة :

obeikandl.com

- تبا لكنّ .. وهل ترينه بضاعة معروضة في السوق ، يشتريها من تعجبه ؟ وأين رأيه هو؟

قالت إحداهن :

- ألم تقولي إنه شاعر ؟

ردّت بانة :

- قلت سيّد الشعراء..

قالت الصبية :

- والشعراء لا أمان لهم ، وهم في كل واد يهيمون ، وأرجلهم تزلق في كل طرف كحيل ..أو خدّ أسيل ..

وما قطع حديث الصبايا ومناكفاتهنّ سوى خروج غيداء - والدة بانة- إليهنّ ، تسألهنّ :

- من هو هذا الفتى الذي أشعل الحرب بينكنّ وأغرى بينكنّ العداوة والبغضاء .. ؟

وتبادلت الصبايا النظرات في مكر ، وهنّ يكتمن ضحكاتهنّ.. وقالت بانة :

obeikandl.com

- كنا نتحدث عن القمر يا أمّي ..

قالت غيداء وهي ترفع جانب فمها إلى أعلى ، في سخرية ، وتنظر بطرف عينها إلى البنات :

- قمر يا نجوم ؟ وأي قمر هو هذا الذي يقول الشعر؟

ودخلت إلى الخيمة ، بينما قالت إحداهنّ لبانة :

- ما أسرع افتضاحك يا ابنة سدّاد ..

المشهد الثاني :

لم تكفّ البارعة عن تأمّل الخاتم في يدها مذ حصلت عليه .. وفي هذه الساعة من المساء ، جلست تتأمله في ضوء فانوس لها في خيمتها .. كانت تقلّبه ، تمسحه ، وتغشى وجهها سحاباتُ غيماتٍ بيضاء وسوداء .. بين انبساط سرائر وتجهّم قسمات ..

ob eikan ali.com

ثــمّ قامــت ، ســارت خطــوات ، توقفــت ..وألقــت بالخاتم إلى السماء ثمّ تلقفته بيدها ، وقربته إلى شفتيها .. قبل أن تجلس إلى مرآتها ..

كانـت تمـرّر أصـابع يمناهـا علـى وجههـا ، وتسـأل نفسها في سرها :

- لماذا يكون على امرأة مثلي أن تعود إلى المرآة بعد سنوات من فراقها ؟ أمـن العقـل أن يفعـل فيَ هذا الخاتم كل هذا ؟ وما الذي بقي منــي ؟ تراني كبُرتُ وأنا التي كنت حسـناء هـوازن ثـم حسناء بني تميم ؟ ترى ما أراه هو فقط مسحة حزن ، ستذهب بأولى رحلة لمرود الكحل بـين رموشي ؟

وتنهّدت تنهيدة عميقة ، ثمّ فركت يديها ، وزادت:

- يقال إنّ للرجال ثلاثة مواسم للمراهقـة .. فــي العشـرين والأربعـين والسـتين .. أتـرى النسـاء أيضا مثل الرجال في ذلك ؟

وقربت الخاتم إلى شفتيها ، تحدثه أو تدفئه أو تقبّله أو تمتصّ ما فيه من الأسرار .. وفاجأها ابنها وهي على تلك الحال ، أمام مرآتها ، وهو الذي لا يذكر أنّ والدته قد استقبلت المرآة يوما،منذ مجيئهما إلى هوازن بعد وفاة والده ..

وارتبكت البارعة بدخول ابنها ، وأرادت أن تقول شيئا ، فقاطعها وقال :

- عرفتُ أنّ خواتم النساء تفعل بالنساء فعلتها،إذ المرأة مجبولة على حبّ الحليّ ،لكني لم أعرف أبدا أنّ خاتم رجل قد يفعل بامرأة ،ما فعله هذا الخاتم فيك ..

قالت أمّه وهي تمسح دموعها:

- شممتُ فيه رائحة بني تميم ، واستعدتُ فيه ذكرى الغائبين ..لقد أعاد إليّ نصف عمري الذي قضيته هناك ، بكل ما فيه من اليسر

obeikandl.com

والعسر ، ولم يكن فيه من العسر – يشهد اللّه- غير كما في رأسي من شيب ..

قال التميمي يشاكس والدته ويداعبها:

- لكنّني لم أرَ في شعرك شيبا يوما أيتها البارعة ..وأظنني سأشيب قبلك ..وأنت في الأربعين..

قالت والدته مستدركة :

- بل في التاسعة والثلاثين ..

قال وهو يبتسم :

آ..نسيتُ أنّ أغلب سيئات الكذب عند النساء تكون حول أعمارهنّ ، وأنّ كل النساء يدّعين عادة ، أنّ أجمل عشر سنوات في حياتهنّ ، هي ما بين العشرين والسبعين ..

قالت وهي تبتسم :

- تبا لك من مفترٍ..

وتناولت السيف المعلق في الخيمة ، وهي تقول :

obeikandl.com

- عليك أن تعلم أنّ والدك رحمه اللّه قد علمني أن أكون امرأة فقط معه ، بينما أكون رجلا مع غيره من الرجال ..

قال التميمي :

- لا يخيف من النساء ما يحملنه بأيديهنّ من سيوف ..سيوف النساء في عيونهنّ ، وفي ألسنتهنّ ..

قالت وهي تستلّ السيف من غمده:

- لك أن تجرّب قتال النساء إذن أيها الشاعر ..لتعرف أنّ سيف البارعة أشدّ فتكا من سيوف عيون الرباب أو خزامى ..

قال التميمي مستغربا وقد وسّع عينيه ضاحكا:

- ومن هذه الرباب وخزامى ؟

وأدارت البارعة وجهها ، تمطّ شفاهها في سخرية ، وتقول :

obeikandl.com

- ما يعلمه الرجال ، تعلمه النساء قبلهم بعشرة أعوام ..

المشهد الثالث :

خرج شيخ حيّ هوازن ، الشيخ حيي بن عوف ، من خيمته مسرعا ، وقد تنامى إليه خبر وصول وفد من بني دهمان، وهم من هوازن ،غير أنّ الأيام فرّقت مضارب بني قشير الذين هم حيّ الشيخ حيي بن عوف ، وإخوتهم من بني دهمان ..

وللثارات والأحقاد الطويلة والمستفحلة التي بين بني تميم وهوازن ، فقد رأى أعيان بني تميم أن يوسّطوا بني دهمان ، لكي يكونوا رسُلَهم إلى الشيخ حُييّ، للنظر في أمر استعادة تميم لفارسها وشاعرها جميل بن البارق بن الحباب..

وكان لبني تميم لدى بني دهمان من الأيدي والمعروف ، ما جعل بني دهمان يسعون في مراد التميميين لدى الشيخ حيي..

obeikandi.com

وهـا قـد وصـل الوفـد ، وخـرج إلـيهم الشـيخ حيي،هاشّا باشّا ، فارشا لهم من الترحيب ما يليق بكرمه وبمقامهم ..

أمام الخيمة الواسعة أشعل غلمان هوازن ثلاث نيران ، كما هي العادة في استقبال الوفود ذات الشأن ..وجلس أعيان الحيّ يتوسطهم الشيخ حيي ، ومعهم ضيوفهم ، يناقشون الأمر :

وقال الشيخ حيي:

- إنّ جميل بن بارق ليس أسيرا نطلب فديته أو رهينة نمنعها من العودة إلى ديارها .. إنّ جميلا بالنسبة لنا ابنُ ابنتنا ، وهو ضيف عندنا ..بل هو اليوم شاعر هوازن ..

قال صعصعة بن حاطب ، وهو رأس وفد بني دهمان وكبيره :

- يا شيخ حيي ، لقد علمنا مقام جميل فيكم مِن عظيم مروءتكم قبل أن نعاينه..وقد عاينّا كل

obeikandl.com

ذلك الآن .. غير أنّ ذلك لا يمنع بني تميم من أن تلتمس منكم - لحقّ ضيافتكم لابنها -أن تأذنوا له في العودة .. وما كان لبني تميم أن ترسل إلى جميل من يطلب منه العودة إليها دون إذن منكم وأنتم منزله وأخواله ..

وما كاد صعصعة بن حاطب يقول ما قال ، حتى دخل التميميّ وقد طلبه شيخ الحي ، فسلّم وجلس حيث انتهى به المجلس .. بينما أشار إليه الشيخ حيي بأن يقترب ليجلس إلى جانبه، وأفسح له الجالسون .. وقال الشيخ حيي:

- هذا هو جميل بن بارق .. ابن ابنتنا ، وجنيّ الشعر في حيّنا ..

وضحك القوم ، قبل أن يقول الشيخ حيي ملتفتا إلى جميل :

- يا جميل بن بارق ..هؤلاء بنو دهمان ،أوفدهم قومك إلينا يطلبونك ..

وأطرق جميل إلى الأرض يعصر جبينه بيده للحظات ، قبل أن يرفع رأسه قائلا :

- ألا إنّ قومي ما قصّروا في طلبي ، وذلك محفوظ لهم ، ثمّ إن بني دهمان ما قصّروا إذ سعوا بمراد أعمامي وجدي الحباب بن عمرو.. غير أنّه ليس مما أرتضيه لنفسي ، أن أترك حيّ أخوالي بينما هم يتوقعون غارة للفرس في كل لحظة من ليل أو نهار ..

واهتزّ المجلس إعجابا وإكبارا .. وقال شيخ الحيّ :

- كفؤ وفارس ذو مروءة .. وإني لأرى لهذا الفتى شأنا في كل العرب ..

بينما قال صعصعة بن حاطب :

- حيا اللّه الفتى الوفيّ .. وقد سمعنا وارتوت قلوبنا قبل آذاننا .. وما أظنّ جميلا قد خذل أعمامه أو أخواله ..

ثمّ هبّ واقفا ، ووقف لوقفته الجالسون ، وقال :

obeikandl.com

- أما الآن فإلى سروج عودتنا ..

وبصوته الجهوريّ الصارم ، قال الشيخ حييّ:

- لا واللّه ، ليس قبل أن تستريحوا عندنا هذه الليلة بما يقتضيه واجب ضيافة الكبراء والسادة..

obeikandl.com

obeikandl.com

الحلقة الرابعة عشرة

المشهد الأول :

كعادتهما في تأويل ما يحدث في الحيّ ، على طريقتهما ، جلس ليل ودخان في سفح الجبل الأحمر ، يرعيان قطيعيهما من الأغنام والإبل ، ولا يكفان عن الثرثرة ..

كان الصباح خريفيا بامتياز .. وكان الثغاء المختلط بالرغاء ،يعطي المكان لمسته البدوية ..

قال دخان :

- كأني سمعت شيخ الحيّ يقول ، إذا حدث أن انتقل التميميّ إلى قومه بني تميم ، فإنّ الذي سيكون شاعر حيّنا بعده هو أنت يا حبة الجوز..

وردّ ليل :

- وأنا سمعتُه يقول أنّ الذي سيأخذ مكان البارعة بعد عودتها إلى بني تميم، هو أنت أيها

obeikandi.com

الطويـل الأبلـه..مـع بعـض التعـديل بالحنـاء والعقـاقير طبعـا ..رغـم أنـي أشـكّ فـي قـدرة العقاقير على تحويل عود إلى بشر ..

وما كاد ليل ينهي ما قال ، حتى ارتسمت على قفاه صفعة من دخان ، وهو يقول :

- نحـن نـتكلم عـن الرجـال وأنـت تتحـدث عـن النساء .. صدق العرب إذ قالوا :

لا يتكلّم عن النساء إلا امرأة ..

قال ليل :

- الفُرس على أهبة أن ينحروك أو يذهبوا بك في (السـبايا) والمحظيـات ، وحـريّ بـك بـدل هـذا الكلام،أن تفكّر في أيامك القادمة التـي ستقضـي نهارها في نشّ الذباب عن ملك فارس،وتقضـي ليلها في الرقص له ..

قال دخان :

- وكيف سيكون هناك نهار أنشّ فيه الذباب ،وأنت هناك معي ؟ سيكون الليل سرمدا دواما على الفُرس ، في الليل ليل اللّه ، وفي النهار أنت..

المشهد الثاني :

كانت أنباء عار حيّ بني واش قد انتشرت في أحياء العرب ..وبنو واش حيّ من مطاريد التميميين،ومن الذين أُخرجوا من قومهم بسبب مظاهرتهم للفرس ومشايعتهم لهم ..

وكان من آخر ما تناقله الركبان عنهم ، أنّ ملك فارس قد أرسل إلى شيخهم، الشيخ ثعلب بن مُرّة، يطلب منه أن يرسل إليه ابنته (نجفاء) ، وقد بلغه من أخبار جمالها ، وهي المطلّقة، ما رغبه فيها ..

وما كان من أمر والدها ،إلا أن أذعن لذلك مفتخرا بأنه سيكون صهرا لملك الفرس ، وهو ما

سيعطيه من القوة والنفوذ ، ما يقمع به قبائل العرب الحاقدة عليه ، وأولها قبيلة بني تميم التي عزلته كما يعزل البعير الأجرب..

ولقد أرسل ملك الفرس موكبا ، في مائة فارس من أشدّ الفرسان ، وكان من نساء الموكب اللائي أرسلهنّ الملك لإحضار محظيته الجديدة ، زوجته الصبية الفارسية (راوند).. التي كانت آية في الجمال ..وفتنة للرجال..

وقد تزوّج الملك (شيرْزاد) من راوند عنوة ، وكانت رافضة متأبية ..ولعلّ الملك أراد معاقبتها على ذلك ، وإمعانا في إذلالها،أو لعله استثارة لغيرتها وحبها ، أرسلها خاطبة لمحظيته العربية..مرافقة لها إليه .. لذلك ، كان الحقد يلتمع في نظراتها ..ويحيل عينيها الفاتنتين جهنّمين تتميزان غضبا ومكرا وحقدا ..

books4arab.com

وكان مما وعدَ به ملك الفارس الشيخَ ثعلب بن مرة ، وأتباعه من حيّ بني واش ، جزاءا لهم على إذعانهم لطلباته وطاعتهم لأوامره ، أن يمكّن لهم في الصحراء ، وأن يجعلهم سادة لقبيلة بني تميم ، بعد التخلص من شيخها الحباب بن عمرو الذي كان ، وبلا منافس ، أشدّ أعداء فارس وملكها..

وسار موكب نجفاء نحو بلاد فارس ، قاطعا الوهاد والنجود ، يحيطه الفرسان ، وتتمايل فيه الإبل بأحمالها من هدايا ومقتنيات ..

وكانت صرخات الصحراء العربية تعلو ، استنكارا وغضبا .. لا يسمعها إلا صاحب نخوة ومروءة ..

المشهد الثالث :

انتصف الليل .. والتمعت نجومه في السماء،متناثرة كلآلئ عروس تستعرض ما لديها مما يطيّر عقول النساء .. وهدأ حيّ هوازن إلا من

حمحمة لجواد هنا ، أو نعيق لبومة هناك ، أو ضباح لثعلب في البعيد ..

وشيّع شيخ الحيّ إلى خارج الحيّ عشرة فرسان ، لا يظهر منهم إلا كما يظهر من المرء في الظلام ..قبل أن يعود مع مرافقيْن له إلى خيمته ..

وانطلق الفرسان العشرة يهزّون الصحراء النائمة بسنابك خيولهم ، ويمزقون صمتها بضبحها.. وسرعان ما غابت أشباحهم في ظلام الصحراء الموحش البهيم .. كأنهم لم يكونوا..

وقد اختار شيخ الحيّ لفرسانه هؤلاء ، من إناث خيول الحيّ أشدّها ، وبعكس الرجل والمرأة في بني البشر ، من كون الرجل أقلّ ضجة وكلاما من المرأة ، فإنّ الفرَس في الخيول أنسب لليل من الجواد ،لقلة ضجتها وصهيلها ،فهي لا تنبّه عدوا إلا حين تفاجئه مباغتة.. لذلك يختار العربُ لإغاراتهم إناث الخيل بدل ذكورها..

المشهد الرابع :

تنفّس الفجر ، وانشقّ الأفق البعيد ، فخرج منه سيف من الضوء الضعيف كمولود استهلّ للتوّ..

وخرجت البارعة من خيمتها ، ترقب المشهد الآسر للنهار وهو يولد من رحم الليل ، وراحت تقول لنفسها :

- أينك الآن يا حشاشة روحي ؟

ومرّ بها دخان في ذلك الوقت ، يقود عنزة ، وسلّم ثمّ قال :

- كيف حال خالتي البارقة ، عفوا ..البارعة ؟

قالت البارعة وهي تبتسم :

- تبدأ الشياطين في ركوبك وليّ لسانك مبكّرا يا دخان ..وليتها تمهلك قليلا حتى تطلع الشمس..

وقال دخان :

- ما رأيتِ شيئا يا خالة ، وهذا أوان ذهاب الشياطين للنوم ، أما ليلا فلا يكاد يفهم عجمتي أحد ..

قالت :

- يكفيك قلبك الطيب يا دخان ..لكن ، أين صاحبك ؟

قال دخان :

- ذاك المسكين لا ينام مثلنا ، بل يكون في حال بين الموت والإغماء .. لذلك يطول وقت انبعاثه .. رحمه اللّه ..

وابتسمت البارعة ، بينما سألها دخان :

- وكيف حال فارسنا الشاعر ؟

قالت البارعة وهي تتنهّد:

- كثُر ما صار الصيد يستدرجه ليلا ، رغم خوفي عليه .. وقد خرج للصيد من أوّل الليل..

قال ليل :

obeikandl.com

- ليته أخذني معه..

قالت البارعة :

- وما نفعك في الصيد يا دخان ؟

قال دخان مستنكرا سؤالها :

- نفْع السلوقي ، ألا ترين نحول جسمي ،وضمور بطني .. برأيك ماذا سيكون نفعي ؟ طبعا أساعده وأرمي معه السباع والغزلان..

obeikandl.com

obeikandl.com

الحلقة الخامسة عشرة

المشهد الأوّل :

حين انحدر الفرسان العشرة من الجبل ، كجلاميد صخر وقعت منه ، كانت الجلبة قد دبت في موكب محظية مالك الفرس ،نجفاء بنت ثعلب بن مُرّة .. ورفرفت حمامات الأمن تفارقه ، ومار الناس مورا،وصرخت النسوة ، وارتجفت القلوب ..

ولم يكن من العادة أن يُغِير مغيرٌ على موكب للفرس أو رَكْبٍ لهم، لما كان لهم من السطوة والهيبة ..

كان الغبار الذي أثارته خيول الفرسان العشرة عبر السفح ، يبعث في روع الفرس أنّ الأمر جدّ لا هزل .. وما كاد الفرسان الذين نزلوا كالصاعقة على الموكب ، يقتربون منه ، حتى فوّقوا نحوه رماحهم فأصابت من أصابت ، قبل أن يلتقي الجمعان ..وما هي إلا برهة حتى التقيا.. واستلّت

obeikandl.com

السيوف من أغمادها ..والتحمت الخيل بالخيل،وقرعَ الحديدُ الحديدَ ،وأثار الصليلُ الصليلَ ..وعلت الأصوات .. وارتفع النقع ..وسالت الدماء .. وتشتتَ شمل الموكب شذر مذر، وتفرقت عيره وخيوله شغر بغر، وهرب منه الكثيرون باتجاهات عدة ،طلبا للنجاة..

ولحق فارسان من فرسان هوازن بمركبين متميزين،مظلّلين،مطرّزي الحواشي ، تبدو عليهما علامات العز،فاقتاداهما إلى الجبل .. بينما كانت البقية تقارع فرسان فارس في جلاد واستبسال،إشغالا لهم وإلهاءً..

وكالعاصفة السريعة التي تأتي بغتة وتذهب سريعا ، لم يصحُ مَن نجا من فرسان فارس من سكرة المفاجأة ، حتى كان تسعة من الفرسان ينأون بعيدا ، بينما حمل أحدهم عاشرهم جريحا..

وقد انكشف الغبار ، ودارت عيون فرسان فارس في فزع ، تبحث عن مركب راوند ، زوجة الملك،ومركب محظيته العربية الجديدة ، نجفاء.. وطارت الأحلام ، وتبلبلت العقول ، وسافرت عيون الفرسان في الآفاق تبحث عن أثر يدلّ على وجهة المغيرين .. ولا أثر..

المشهد الثاني :

نأى الفرسان التسعة ومعهم جريحهم ، وحين أحسوا بالأمان ، توقفوا للراحة واسترداد الأنفاس،وقد كشفوا عن وجوههم ، فإذا فيهم التميميّ ، وابنا خاله سعيد ، وهما المثنى،ولبيد،وشباب غيرهم من الحيّ ..

أمّا الذي أصيب منهم ،وكانت الإصابة في فخذه الأيسر ، فقصيّ بن أسيد ، الخال الأصغر للتميميّ،وكان قصيّ رغم حداثة سنه مقاتلا

obeikandi.com

بارعا شرسا..ولولا وجود التميميّ ، لكان شيخ الحيّ قد اختاره قائدا لهؤلاء الفرسان في مهمتهم هذه ..

وما كاد القوم يُنزلون جريحهم ، ليعاينوا جرحه،حتى ندّ من أحد الهودجين المختطفين صوت امرأة يقطعه لهاث الخوف، يقول:

- أريد ماءً يا هؤلاء ..

وانتبه التميميّ إلى مصدر الصوت ، وقد أيقن أنّها النجفاء ابنة غريم قومه ،ثعلب بن مرة، فرمى سقاء صغيرا من الجلد ، إلى أحد الفرسان ، وأومأ إليه أن يسقيها ..وفعلَ الفارس ، ثمّ مدّ يده بالسقاء بعد ذلك إلى الفارسية ، يسقيها .. وما كان منها إلا أن رمت السقاء في وجه الفارس،وتمتمت بحديث ، وهي ترفع أنفها في تعال،إلى السماء ..مشيحة بوجهها ..

ob eikanali.com

وما كان من الفـارس العربـيّ إلا أن ابتسـم ، وهـو يهزّ رأسه ، يمينا وشمالا ، وقد أدرك مـا بهـا وهـي التي لم يخطر ببالها يوما أن تقع فـي يـد أعـدائها من العرب ..

المشهد الثالث :

سرت في حيّ هوازن أخبار أسر التميمـيّ وفرسـان معـه لزوجـة ملـك فـارس ، وارتعـدت فـرائص المثبطـين وضعفاء القلـوب ..وراحـوا ينـذرون بمـا سيحلّ على الحيّ من نقمة فارس ..وكان من بـين هؤلاء الكاسر ، ابن شيخ الحـي ، وقـد اتخـذ قـراره بالرحيـل مـن الحـيّ مـع ابـن عمـه وثابـا وبعـض أصحابهما، تجنبا للمصيبة..

وقد جمع شيخ الحيّ أهل حيـه ، وتصـدّر المجلـسَ أعيانه ، ووقف النـاس أمام الخيمـة ، بينمـا جلسـت النساء بعيدا ، يتابعن ..

obeikandi.com

وقام شيخ الحيّ ، فقال وعلامات البِشْر بادية على وجهه :

- بلغني أنّ أناسا من أبنائنا قد عزموا على الرحيل خوفا وجبنا .. وكنا قبل هذا قد أكبرنا في التميميّ أنه رفض العودة إلى قومه، إذ جاء وفد بني دهمان يطلبه.. مؤْثرا البقاء معنا لمواجهة خطر فارس .. وما فارس بالتي تظلم دفاعا فقط ، وهي التي لا تتورع عن إبادة أحياء ما رفعت في وجه فارس يوما عينا أو يدا..

ولقد أخذنا برأي رآه التميميّ ، فأغرنا على موكب لملك الفرس ، وهي ذي زوجته الفارسية،وعروسهُ من عرب بني واش الذين انسلخوا من بني تميم.. واشرأبت أعناق الناس ، ووقفت النساء يمددن رقابهن يتطلعن إلى المرأتين ..

openkanadi.com

وتهامست الصبايا بجمال راوند الساحر ، وبما عليها من الحليّ الثمينة والنادرة..

بينما كانت الأخرى، نجفاء، مطرقة ، وقد لبسها عار والدها وقومها ..ووجدت نفسها بعد حلمٍ بالقصور والعزّ ، سبيةً مهينة تتحاشاها العيون ، ويستصغرها الناظرون..

وأضاف الشيخ ..:

- ولسنا ندري ، هل يعجّل هذا بحرب الفرس علينا ، انتقاما لما اقترفناه و افتكاكا لما أخذناه ..أم يؤجلون ما كان في نيتهم من حربنا ، خوفا على ما في أيدينا من نساء ملِكهم .. لكن الحزم يستدعي الحذر والاستعداد ، والنوم بعين واحدة كما هو شأن ذئاب الصحراء .. ونحن ذئاب الصحراء .. ولقد كان التميميّ فيما قام به أهلا لأن تكون زوجة ملك الفرس معه ، يتخذها ما يشاء ، أمة أو خادمة ..

قال التميمي :

- ما كان ذلك مما أتطلع إليه يا سيّد القوم .. فلتجعلها لغيري ..

وقام أعيان الحي، يقولون بصوت واحد ، قولا واحدا :

- هو عُرف الأجداد ، وهي لك يا تميميّ ..

وحدجت رواندُ التميميّ بنظرة شزراء .. بينما كان شيخ الحيّ يقول :

- أمّا الأخرى ، فهي ضيفة لدينا ، وستكون مع بناتي إلى أن يسفر الصبح عن رأي بشأنها..

ووجدها التميميّ فرصة سانحة ، ليقول :

- والفارسية ضيفة عند البارعة بنت أصهب ، وهي معها إلى أن يسفر الصبح عن رأي لكم بشأنها.. ولستُ بالذي يغير على الجيوش ليكسب قلوب نسائها ..إنما أغير على الجيوش لأحرق قلوب رجالها .. وملوكها ..

o b e i k a n d l . c o m

ومن بعيد تأملت البارعة وجه ضيفتها الفارسية الفاتن ، وتحرّك في قلبها من الخشية على ابنها ، وهي العارفة بما يفعله مثل هذا الجمال الساحر بقلوب الرجال وإن لم يكونوا شعراء،فكيف الظن بابنها وهو شاعر حسّاس..؟

obeikandl.com

obeikandl.com

الحلقة السادسة عشرة

المشهد الأول :

في بلاد فارس .. كان الملك (شيرْزاد) على عرشه ، يرغي ويزبد غاضبا ...وحوله حاشيته مطرقين من خوفه وبطشه ..

وقال الملك:

- وإذ لم تفعلها بنو تميم ، فقد فعلها جروٌ منهم مستنبتٌ في غيرها .. وما جرّأه علينا إلا أنه حدثٌ غِرّ لا يعرف ما فارس، وما بطشها ..

ثمّ أومأ الملك بيده إلى قائد جيشه ، بادنجَكي والد راوند ،بأن يقترب، وحين لم يكن بينه وبينه إلا مَدّة ذراع ، مدّ الملك يده فأراق إناء الشراب على ثوب قائد جيشه وهو يقول بكلام متقطّع،تأكيدا :

- قبل أن تجفّ ثيابك.. تكون قد فكّرت لي في خطة ، تجعل هوازن عبرة يتناقل الناس ما

obeikandl.com

ألمّ بها مما لا يجرؤ معه جريء أن يفكّر في أن يرفع في وجهنا سيفا أو يرمي في ظهرنا سهما..

قال الملك شيرْزاد ذلك ، ثم أشار إلى قائده بالانصراف ، وانصرف القائد بادنجَكي ، بينما تبعه أشخاص من المجلس بعد أن انحنوا للملك .

المشهد الثاني :

ليلا ، وعلى نار لهما في الفلاة ، قال دخان لصديقه (ليل) وهو يصفعه على قفاه :

- كان حريا بك أن تطلب من شيخ الحيّ أن يهبك تلك الفارسية الفاتنة ..

قال ليل :

- ولمَ أطلبها ولم أكن ممن اعترض موكبها من الفرسان .. ؟

قال دخان:

- ألم يخرج هؤلاء الفرسان مع الليل ؟

obeikandi.com

قال ليل :

- بلى ..

قال دخان :

- ما داموا قد خرجوا مع الليل ، وأنت ليل ، فقد كنت معهم ..ومن حقك أن تطلب..

قال ليل:

- لا أحب الفارسيات ..وقد روت لي والدتي أنّ العرب لا يرغبون في نساء فارس لأمرين..

قال دخان :

- وما هما هذان المانعان ؟

قال ليل :

- لا أدري ، نسيتْ والدتي أحدَهما ، ونسيتُ أنا الآخر..

قال دخان :

- حُقّ لك أن تنسى ..فليس فيكَ ما يتسع للمرويات ..

obeikandl.com

قال ليل :

- ولمَ لم تطلب أنت من شيخ القبيلة أن يهبك العربية ؟

قال دخان :

- وهل كنت أنا في الفرسان لأطلب ذلك ؟

قال ليل :

- أوليست الحرب نارا ..؟

قال دخان :

- بلى، نام...آ...عفوا ..نارْ

قال ليل :

أوليس للنار دخان ؟

قال دخان :

- بلى ..

قال ليل :

obeikandl.com

- وإذن فقد كنتُ أنا مع الفرسان لأنهم خرجوا بليل ، وكنتَ أنت معهم دخانا ، حين اشتعلت نار المعركة ..

قال دخان وهو يصفع صاحبه على قفاه :

- ما أتيَسَكَ .. هل تُراك ترى الآن الدخان المنبعث من هذه النار؟

قال ليل:

- لا أراه ..

قال دخان :

- لا يجتمع الدخان والليل أبدا ..ولا يظهر الدخان في ظلام الليل ، لذلك لم يحالفني ظهور ولا فوز قط منذ خالطتك يا ظالم ..آ..عفوا ..يا مظلم..

وضحكا ، وما لبث ليل أن أخذ إناء ، اتخذه كالدف وراح يدق عليه ، وهما يغنيان بصخب يمزّق سكون الليل:

obeikandl.com

امنحني امنحني بنتَ الفرسِ امنحني
واذبحني اذبحني بعد العرس اذبحني
ذئبٌ أمسى عنزهْ فَزْ فزْ فزْ فزْ فَزّهْ
أبعِدْ شحمك عنا واهززْ خصركَ هزّا
خاسرْ.. خاسرْ.. خاسرْ يا من يُدعى الكاسرْ
مثل القربة ألقا كَ العفريتُ الثائرْ

المشهد الثالث :

في بني تميم ، كان شيخ الحيّ الحُباب بن عمرو بن يربوع التميمي يتجاذب أطراف الحديث مع بعض أبنائه ومقربيه ،أمام خيمته ، عصرا ..
وقد بلغ خبرُ إغارة جميل بن بارق على موكب الفرس ، حيّ بني تميم ، كما بلغ غيره من أحياء العرب ..
وقال سدّاد بن الحباب وهو يجرع من طست اللبن جرعة :

o p e r k a n d i . c o m

- كاد يظلنا زمن ، يصير فيه سعر الفارسيّ بسعر عنزة .. وما أرى ذلك ببعيد..

وقال رجل غيره :

- ما سررت لشيء سروري بما حدث لثعلب بن مرة ..صدق من قال إنّ الثعلب إذا هان نتفت فروته الغربان ..

قال سدّاد:

- بل صدق من قال عن ثعلب هذا وأمثاله : حظٌّ في السحاب وعقل في التراب..

قال الحباب :

- الفرس اليوم ذئب جريح ، ولا يجب أبدا أن نستهين ببطش وشراسة ذئب جريح .. لأنّ المعركة الآن بالنسبة للملك (شيرْزاد) ، معركة مصيرية ، إما أن ينكسر فيها أنفه وتذهب ريحه ، وإمّا أن ينكسر فيها أنف العرب ، ليتحولوا إلى رعاة خنازير لديه..وما أرى إلا أنّ

الفرس في هذه اللحظة يعدون للحرب عدتها،ويقرعون طبولها ، جهرا أو سرّا ..

قال شيخ متكئ ، يعبث بالحصى :

- ما أرى يا شيخ حُباب إلا أنّ حفيدك هذا سيكون له شأن عظيم ، فإما أن يكون سبب هلاك العرب أو سبب عزها ومجدها..

قال الحباب :

- كأبيه ..يحمل جمرة في قلبه ، وينظر إلى بعيد .. ولئن كان سيقود قومه إلى حتفهم في ظلال سيوفهم ، بدل خنوعهم لفارس وهي تعبث بأعراضهم ودمائهم ، فأنا أوّل من يضع يده بيده ..

وما كاد الحباب ينهي كلامه ، حتى اقترب من مجلسه ذاك ، فارس يغالبه جواده مغالبة ..وقد كشف عن وجهه في تلك اللحظة ، فإذا هو ابنه الأصغر أوس ..وقد بدا عليه الجدّ ، وهو يقول:

obeikandl.com

- جاءتنا ريحٌ بأخبار لا تسرّ ..

وهبّ القوم واقفين ، وقال الحباب بن عمرو :

- ما الأمر يا أوس.. ؟

قال أوس :

- إنّ ملك الفرس قد وعد من يحمل له رأس جميل ، ابن أخي البارق ، بوزن السيف الذي يقتله به ذهبا .. وما أرى سوقة العرب وصعاليك الصحراء وقطّاع الطرق إلا سيتسابقون إلى ذلك ، وأرى أن نستقدم جميلا إلينا ، فما غيرنا يستطيع حمايته ..

قال الحباب:

- لقد عشت من السنوات قرنا .. خبرت فيه ما لم يخبره غيري ..وما علمتُ رجلا أغرى به ملِكٌ أو حاكم طامعي النفوس ، إلا ناله وأهلكه .. وإنّ ابن البارق لفي أمرٍ شديد منذ اليوم .. فأوفدوا إليه من يخبره ..

obeikandl.com

obeikandl.com

الحلقة السابعة عشرة

المشهد الأول :

في ذلك الوقت الذي يلتقي فيه الليل والنهار،ويتداخل فيه البياض والسواد ، ويغشى فيه الظلام النورَ..في ذلك الوقت من المغرب،حيث تستقبل الصحراء الليلَ .. وليل الصحراء فتنة .. كان التميميّ أمام خيمته يتأمّل النجوم ، وكانت والدته تتأمّل خاتم بني تميم،تقلبه ، تمسحه ، تقربه من عينيها،تبعده..بينما كانت الفارسية تحيط وجهها بكفيها،وتدير وجهها في الآفاق ..

وقد مرّ على راوند في بيت البارعة ثلاثة أيام،ارتخت فيها أعصابها ، وهدأت نفسها، وأقبلت على بعض الطعام بعد تمنّعٍ ليومين ..وقد يكون ذلك من التماوت الذي يبديه بعضهم ليفوز بثقة

obeikandl.com

خصمه ، للإجهاز عليه ، أو للفرار منه .. وقد يكـون مـن اليـأس ، وقـد يكـون اطمئنانـا إلـى أنّ ملـك الفـرس لـن يتخلـى عنهـا وسيرسـل مـن يحررهـا ويبيد آسريها..

ولعلّ الْتماعَ النجوم في السماء ، أو هبوب النسائم في تلك الساعة ، قد حرّك بين جانحي جميـل ، مـا يحـرّك عـادة فـي نفـوس الشـعراء جمـرَ القصـائد ..فقال وقد ذهل عمن حوله:

قولي لمن بدموع الشوق قد شرقوا

ومَنْ إذا ذكروا أيامَنا شهقوا

يا نجمة الليل ، قولي للذين إذا

لم يُبردوا الجمرَ ليلا فيهمُ احترقوا

لا، ما نسيْنا..ولا خنّا عهودكو

ولا رجعنا لأحباب لنا سبقوا

وليس يعرفُ نكْثَ العهدِ مَن حلفوا

ولا بماذا يُداوى القلبُ مَن عشقوا

وعذرنا يا نجوم الليل ، أنّ لنا
عذرَ البعيدِ إذا طالت به الطرقُ
وقد وثقنا بحظّ ، كانَ أمّلنا
وقيل يتعبُ من في حظه يثقُ

كانت سكرة الشِّعر قد أنست التميميّ نفسه ..فراح صوته العذب يسيل كقطرات الضوء،ويفتح للروح مسارب في الليل ، لتلقى أحبتها الغائبين ..وقد ذابت البارعة في الكلمات ، وسالت دموعها،وهي تسافر بعيدا ، إلى البارق الذي كان زينة أيامها ، بينما هي لا تهتدي اليوم إلى قبر له .. ولا تعرف في أي أرض ثوى ..

بينما كانت روح الفارسيّة تسيل قطرة قطرة ، ثمّ تتجمع داخلها لتكون طائرا أحمر جميلا ، يسقسق مرددا ما يقوله التميميّ ..

وللنساء أسوار لا يسقطها غير الشعر .. ومن مسّ الشعرُ أسوارها ، فتحت ، ولو كان الموت يترصدها .. وذاك هو الموت العذب..

كانت المرأة الفارسية ،في تلك اللحظة ، تهدم كل ما بنوه داخلها من جبال الوهم حول العرب الهمج الرعاع، وتكتشف هذا الهدوء البدويّ الآسر ، الذي تسكن إليه النفس، وتأنس إليه العواطف ، وترتمي فيه الأحاسيس ، دون تفكير ولا احتياط .. ولأوّل مرة منذ حلولها بهذا الحيّ ، رمت بعينيها إلى ذلك الفتى السابح في ليل الصحراء،نسمة خفيفة ، شفيفة ، لطيفة..وتأملته ، وهي التي لم ترَ منه طوال أيامها معه ما يبعث على ريبة أو يشي بما يعيبه فارسا .. إذ لم يكن يملأ عينيه منها ، مروءة .. وقد راحت لذلك ، تقارنه بزوجها الملك ، في أخلاقه ، وفي حركاته وسكناته..

كان الليل قطعة من السِّحر..مرصَّعةً بالنجوم ، موشاةً بالهدوء ، تهبّ عليها النسائم فتنعش القلوب فيها ، وتنفخ في جمر الشوق ، وتحرك أغصان الذكريات ..

وكان لكل واحد من هذه الأطياف الثلاثة ، ما يرفرف بروحه وما يزلزل فؤاده، ويُسيل دمع عينيه ..

المشهد الثاني :

كان محشر أسرى الفرس ، يعوم في الصمت ، كفلينة في البحر ، منتصف الليل ..لا يمزقه سوى أنينٍ منبعثٍ من هنا أو هناك ، بعد يوم شديد ، قضاه الأسرى في العذاب ..

وما كان للفرس أن يصيبهم من العرب ما أصابهم ، مما هو بالنسبة إليهم صدمة ، دون أن يشفوا غليلهم في الأسرى ، تعذيبا وتنكيلا وأذى ..

obeikandi.com

وكان اليوم طويلا على هذه الأشباح التي أَلِفَ لحمها السياط ، وما عادت قلوبها تفرّق بين كلمة مدح وكلمة شتم..

وكان الزبرقان يتكئ على الجدار ، وفي جسمه حقلٌ من الجراح المزهرة ، وعلى وجهه كدمات زرقاء وحمراء .. وفي عينيه بريق غريب ، هو في العادة الفاصل بين عالم الإحساس،وعالم التحجّر ..

وكان أخوف ما يخافه الزبرقان هو أن يكون يوما مثل هذه الأشباح التي لم يبقِ لها سجانها من الحياة غير الشهيق الذابل، والزفير المتعَب..

وهمس الزبرقان لصاحبه :

- صحيح أنّ ما أصابنا شديد .. لكنني لا أشك في أن الذي أصابهم أشدّ .. كانوا يحاولون إشفاء غليلهم فينا لشيء ما أصابهم ..

قال الرجل :

obeikandl.com

- أولم تعرف بعد ما الذي أصابهم ؟

قال الزبرقان وهو يصلح من جلسته ، مستقبلا صاحبه في اهتمام :

- لا ..لا .. لم أعرف .. هل لك علم أنت بذلك ؟

قال الرجل :

- أغارَ رجال من تميم وهوازن على موكب لفارس ، وأخذوا زوجة (شيرْزاد) أسيرة..

قال الزبرقان :

- إذا صحّ هذا الخبر ، فلا أهتمّ بعد ذلك لروحي ولو أزهقَتها فارس..

وأشار الزبرقان بإبهامه ، إلى الجدار الذي يفصل زنزانته عن الزنزانة المحاذية لها ، وكان أحدهم يقول وهو يقهقه جاهدا، بضحكات يقطعها السعال والأنين :

- ماذا بقي لملككم بعد أن أخذوا منه زوجته ؟

وضحك الزبرقان ، بينما همس له صاحبه :

- هذا هو صاحبنا الذي حدثتك عنه .. ما نفعهم في تكميمه تعذيب ولا إرهاب..

المشهد الثالث :

مدّ (ليل) ذراعه إلى النار بالسفود الذي شكّ به ديكا ، طالما توعده بالذبح لصياحه وقت القيلولة ، على غير عادة الديكة التي تصيح فجرا.. بينما كانت رائحة الشواء تنبعث مثيرة الشهية ..داعية بعض هررة الحيّ للحضور ، والإقعاء قريبا تراقب وتنتظر ..

قال ليل لصاحبه دخان :

- هذه هي المرة الثالثة التي أعود فيها إلى شيّ الديك ..

قال دخان :

obeikandl.com

- وكنتُ في كل مرة أغرز أصـابعي فيـه وأخبـرك أنه لازال نيئا .. والشيّ صـبرٌ لا اسـتعجال..وأنـا إنسان آكل المشوي ، ولست ثعلبا ..

ثمّ مدّ سبابته يكشف عن أسنانه وهو يقول :

- ويمكن أن تلقي نظرة لتتأكد أنّه لا أنياب لـي ، لأفترس ديكا نيئا ..

قال ليل :

- ستكون هذه المرة الأخيرة ، فطول عرض الديك على النار ،جعله بحجم جرادة ..

قال دخان متهكما وهو يصفع ليلا على قفاه:

- هل أنت متأكد أنّ ديكك ليس من قوم فرعون ؟

قال ليل :

- لمَ؟

قال دخان :

obeikandl.com

- من كثرة عرضك لـه علـى النـار.. و اللّه قـال فـي قوم فرعون : (النار يعرضون عليها غـدوًّا وعشـيا) ..

قال ليل :

- بل هو فرعون نفسه ، وقد ذبحته لأنني نهيته عن أن يفسد عليّ قيلولتي ، فقال لي متحديا : :(أنا ربكم الأعلى) ..

وضحكا الصديقان ، وهما يغنيان :

اِذبحني اذبحني مثل الديك اذبحني
وامنحني امنحني بنتَ الفرسِ امنحني
ديكٌ أمسى عنزهْ فَزْ فزْ فزْ فزْ فَزّهْ
أبعِدْ شحمك عنا واهززْ خصركَ هزّا
خاسرْ.. خاسرْ.. خاسرْ يا من يُدعى الكاسرْ

obeikandl.com

الحلقة الثامنة عشرة

المشهد الأول :

مـــرّت أيـــام علـــى وجـــود الفارســـية فـــي ديـــار هوازن،وكانـت ميالـة إلـى الصـمت ، لا تكـاد تمـلأ عينيهـــا مـــن أحـــد ، تقضـــي جـــلّ وقتهـــا أمـــام الخيمة،مستقبلة ديار أهلهـا .. متأملـة ، ترنـو إلـى بعيد..

إلــى أن داهمهــا المــرض فجــأة ، ورمّضــت الحمّــى جسمها ، وحمّرت خديها .. وألهبت أنفاسها..ولزمت الفراش ذابلة كوردة ..

وقد شقّ ذلك على جميل وأمّه ، ورقّا لحالها ،وبذلا لها من السعي في التطبيب والقيام علـى خـدمتها والاهتمام بها ، ما يبذله والد لولده..

وهـــي ذي بعـــد ثلاثـــة أيـــام مـــن مرضـــها تفـــتح عينيها،وقـد ذهـب نصـف الليـل ،فتـرى التميمـيّ

جالسا إلى جانب فراشها ، وأمامه ركوة فيها ماء،يبرّد فيها ما يسخّنه جبينها من الخِرق .. تلطيفا لحرارتها..

ولم تجد ما تشكره به في تلك اللحظة ، غير نظرة عجلى ، عبرت بها سريعا عينيه..

ولعل الفتى أحسّ بفتنة تلك النظرة رغم كونها لم تكن سوى خطفة برق ، فارتبك واضطرب ورمّش عينيه يبعدهما عن نار عينيها اللتين ما رأى مثلهما في حياته قط ..

وأحست برجفته فأشاحت ..

ثم ما لبثت أن استقبلته مرة أخرى بوجهها تطلب ماء ..

وأسرع إلى السقاء يملأ لها إناء صغيرا .. وأتبعته عينيها تتفرسه ، أو تفترسه بهما ..هو الفتى الذي حوّلها من سيّدة قصر ، تحيط بها الجواري،وينحني أمامها الخدم ، جالسة أو رائحة أو

oueilkandi.com

غادية ، إلى سبيّة لا تجد حتى من يعطيها جرعة ماء..

والنساء إذا أحببن يحببن كما يحب عشرون رجلا،ويحملن حبّهن داخلهنّ عشرين سنة ..

وإذا حقدن ، يحقدن كما يحقد خمسون جَملا.. ويحملن حقدهنّ داخلهنّ خمسين سنة ..

واقترب التميمي من الفارسية ، ومدّ يده إليها بإناء الماء .. ومدت الفارسية يدها فضربت الكوب في يده في حنق وغضب ، فوقع على الأرض، محدثا ضجة أيقظت البارعة من نومها مرتاعة فزعةً..

وقامت إلى المريضة ، تسألها إن كانت تريد شيئا..

قال جميل :

- طلبتْ ماءً ، وحين قدمته إليها ...

قالت والدته وهي تقاطعه :

- ليست راضية عنك ..

وأجهشت الفارسية بالبكاء..واقتربت البارعة منها تمسح وجهها بحنان، وترفع رأسها بيدها،وهي تضع شفةَ الإناء على شفتيها ...وشربتْ..

المشهد الثاني :

على النبع ، كانت الرباب تملأ جرتها ماء ، بينما قالت صبية بجوارها لأخرى وهي تخطف النظر من جانب عينها إلى الرباب، تقصدها بكلامها :

- هناك من الرجال مَن لم يظفر بصبية واحدة،بينما غيره ينعم بحبّ الكثيرات حوله من بنات العرب وبنات فارس ، وربما قريبا من بنات الروم ..

وأجابتها صاحبتها :

- ألم يقولوا في أمثالهم إنّ الشيء المحبوب له أسماء كثيرة .. فهو كذلك له حبيبات كثيرات..

قالت الأولى :

- يقال إنّها أبهى من القمرين ..

obeikandl.com

قالت الأخرى :

- ويقال إنّ من نظر في عينيها علق ، وما أراها إلا ستنسي صاحبنا كل بنات العرب ، وهي الفارسية الصبية الفاتنة ..

وزجرتها صاحبتها وهي تقول :

- أأكنّي وتصرّحين ؟ أحدثك عن السرى وتُرينني القمر؟

فردت عليها :

- هذه غير ما عرف الناس ورأوا من نساء فارس .. فرَسٌ حرون ، معتدةٌ بنفسها.. شامخة بأنفها ، لا تكاد تنظر إلى الأرض إلا إذا كان فيها ماء نظرت فيه إلى صورتها .. ولها من فتنة العينين وجمال القدّ وسحر الشّعر وروعة الابتسام ، ما يهزم جيشا ..رقيقة.. تحبل لو أنّ ذكَرَ ذبابٍ حطّ على خدّها..

وانفجرت الفتاتان ضاحكتين ، وحدجتهما الرباب بنظرة حادة مفترسة ، وهي تقول :

obeikandi.com

- كما أنّ الرنة دليل على القطعة إن كانت من ذهب أو من ورقٍ أو من حديد ، فكذلك الضحكة دليل على معدن الفتاة .. وقد قالت العرب : إذا صاحت الدجاجة صياح الديك فاذبحوها ..
- قالت إحدى الصبيتين :
- وما الذي أوجعك من كلامنا يا ابنة سيّد الحيّ وكبيره ؟

قالت الرباب :

- تتحدثن عنه قائمات وقاعدات ، ويشغلكنّ مصبحات وممسيات .. فلمَ لا تخطبنه من والدته؟ أوليسوا يقولون إنّ كلبة حومل قد أكلت ذيلها من شدة الجوع ..وما أراكنّ إلا ستأكلن أنفسكنّ من شدة الاهتمام به .. فما الذي يجعل هذا الغريب يفعل كل هذا بكنّ

ob eikan gl.com

وأنــتن بنــات أعيــان الحــيّ ، وفــيكنّ مخطوبــات ومتزوجات ومطلقات؟..

وسكتت الفتاتان منزجرتين .. بينما حملت الرباب قلة الماء وتمايلت بها نحو الحيّ ، وفي رأسها شيطان يقول لها :

- أمّا أنت فسيأكلك إنكارك .. وإن لم تضمني محبته ، فلن تضمني مخدته .. وإن لم يكن لك عاشقا ، فلن يكون لك زوجا ..

وأومأت الرباب برأسها بالإيجاب ، مصدّقة شيطانها فيما قاله ..ولعلها قالت لقلبها حينذاك،تلومه وهي تتنهّد في أسى :

- وقد تعيي القلوب أصحابَها من شبّ إلى دبّ ..

المشهد الثالث :

مرّت الأيام آخذ بعضها بخطام بعض .. عيرا في قافلة .. يجدّدها النهار ويمحوها الليل.. وينشرها الضوء ويطويها الظلام ..وهي ذي هوازن تعيش

الانتظار المرّ لهجوم الفرس المتوقع .. وقد قيل إنّ نزول القضاء أهون من انتظاره ..
في هذا الصباح الباكر ، كان التميميّ بالقرب من خيمته ، يقاتل أشباحا متخيلة ، وهو يتدرب كالعادة على الطعان ، بما لا يتقنه إلا فارس متمرس وأسد هصور..
وكانت الفارسية تراقبه من مطلّ في الخيمة .. وقد أدهشتها قوته ،وبراعته، وقدرته على التحمّل .. ولعلها وجدت في مشاهدته وهو يتدرّب ، بعض ما يسلّي قلبها ، وينسيها شوقها لديارها ، ولو لساعة..
ولم تكن الفارسية وحدها من يسرق النظر إلى التميمي وهو يمارس ما تصفه أمه بجنون القتال،بل كانت هناك أعين كثيرة تسترق إليه النظر ، ذاهبة أو آيبة ، بالقرب منه ..أو من خلال مطلّات خيام مجاورة..غير أنّ التميميّ كان لا يكاد

يشـعر بشـيء ممـا حولـه ، حـين تلبسـه حـال القتال،ولو توهّما..

كـان جبينـه يتصـبب عرقـا .. وهـو يـروح ويجيء،يطعن ويتترس ، يقدم في شراسة ويحجم في يقظة ..

وحين أنهكه الأمر، وعلا لهاثه ،اقترب من ظل خيمتـه ، يأخـذ قسـطا مـن الراحـة ، يمسـح عرقه،ويشرب بعض الماء .. ويستردّ أنفاسه ..

وكانـت هـي مـا تـزال تراقبـه ، وتتأمـل حركاتـه وسـكناته..وهـو الفتـى الـذي غيّـر حياتهـا ، وبـدّل عزها بداوة ..

وفكّرت وهي ترى السيف مرميا بجانبه ..لو أنها تستطيع أن تشفي غليلها بإغماده في صدره..

كانت والدة التميميّ حينذاك عند إخوتها ، تجلب شيئا من متاع ..

oueikamal.com

ولعلّ التميميّ قد أحسّ بالارتخاء إذ جلس في الظلّ ، وذهبت عنه فورة الإجهاد .. فمال، يتكئ على مرفقه الأيسر ، وهو يطيّر عينيه إلى الأفق البعيد ، مثل صقرين مكلّبيْن،كاسريْن..

وفجأة .. علت صرخة شقت عنان السماء .. وخرجت الفارسية من الخيمة ، تلتقط حجرا ، وتهوي به قريبا من التميمي ..

وفي لمح بصر ،وكبرق خاطف، يهبّ الفتى،مبتعدا، عن الحجر .. وقد ظنّ أنّ الفارسية حاولت قتله ...لكنه حين استدار بعد أن نأى ..وجدها واقفة متسمّرة ، رؤوس أصابعها في فمها .. وقد اتسعت عيناها المتجمدتان على حيّة تجمّدت هي الأخرى حين سمعت الصرخة،وأخطأها الحجر..

obeikandl.com

وابتسم التميميّ كأنما يهوّن على الفتاة ما روّعها .. ثـمّ تظـاهر كأنـه سـيقرّب يـده مـن الحيّـة .. فصرخت الفتاة:

- لا تفعل ..

وعـاد إلـى الخلـف ..ومـا أحسّـت المـرأة بشـيء ، إلا ورمحـه يشـقّ الحيّـة ، ويثبتهـا منغـرزا فيهـا وفـي الأرض..

وابتسم التميميّ للفارسية التي نظرت إليـه نظـرة شزراء ، ثم استدارت بشدة ، وغادرت ..

كانت تلك الحادثة قد فعلت فـي جميـل فعلتهـا .. فهـاهي ذي امـرأة يجتثهـا مـن أرض قومهـا مثـل فسـيلة، ليغرسـها فـي صـحراء قومـه القاحلـة.. ويحوّلهـا مـن حيـاة البـذخ والرقـة ، إلـى خشـونة البادية ..ورغم ذلك تنقذه من الموت ..

أكانت قد فعلـت ذلـك بمجـرد ردة فعـل حـين رأت الحية ..؟ وكانت الإجابة عن هـذا السـؤال بالنسـبة

obeikandl.com

للتميمي سهلة وبسيطة .. ولو أن المرأة اكتفت بصرختها عند رؤية الحية ، لكان ذلك أقرب إلى ردة الفعل ، لكنها إذ خرجت من الخيمة وسعت إلى قتل الحية ، فذلك مما ليس من ردات الفعل السريعة التي يقوم بها الناس دون تفكير ولا إرادة..

ثمّ ما معنى أن يقرّب التميميّ يده من الحية ، فتمنعه ، وتنهاه ..؟

لكن ..لمَ تُقْدم امرأة سبيّة على إنقاذ مختطفها ودفع الموت عن سابيها ..؟

في ذلك المساء ، قالت البارعة لابنها وقد سمعت منه ما حدث :

- كما ظننتُ بالضبط ..

وسأل جميل أمّه ، عن معنى قولها ذاك ، وعما ظننته ..لكنها لم تجب ..واكتفت بابتسامة ماكرة يصنعها على شفتَيها ألفُ شيطان..

obeikandl.com

الحلقة التاسعة عشرة

المشهد الأول :

همست الفارسية للبارعة تسألها ، إن كان ابنها يحسن الصيد ، وإن كان في منطقتهم غزلان؟ وإن كان بإمكانها أن ترى هذه الغزلان في الصحراء ..

وحين نقلت إلى ابنها هذه الأسئلة وتلك الرغبة .. ابتسم التميميّ ،وقد أحسّ ببراءة هذه المرأة التي تطلب مثل طفلة صغيرة.. وطلب من أمه أن تستعدّ هي والفارسية ، للخروج معه عصرا إلى البرية ..

وعصرا ..انطلق حصانان ، أحدهما يركبه جميل،والآخر تركبه البارعة وخلفها الفارسية.. وعلا النقع بينما الحصانان ينأيان عن الحيّ ..

كان المساء آسرا بامتياز.. وفي قلب البادية ، وفي المكان الذي تعوّد التميميّ على صيد الغزلان فيه،اكتشفت الفارسية عالما جميلا وهي تكمن

obeikandl.com

مع البارعة خلف كثيب، تراقب الغزلان وهي تقترب من نبع للماء في حذر.. وهمست:

- كيف يمكن لهذه المخلوقات الجميلة الفاتنة أن تعيش في صحراء قاحلة كهذه ؟

قالت التميميّ :

- وأين تعيش الغزلان إن لم تعش في الصحراء..؟

غير أنّ والدته كانت أشد دهاء منه في فهم سؤال ماكر لامرأة لمّاحة في حذر ..وقالت :

- أكان لكم في قصور فارس ظباء ؟

قالت الفارسية :

- من أجمل الظباء ..

قالت البارعة :

- أكنتِ ترينها سعيدة ومنتشية ، كما هي ظباء الصحراء هذه ؟

قالت الفارسية :

obeikandl.com

- لم يكن لها مثل هذا الرقص وهذا الحذر وهذا الانطلاق ..أظنها هناك في القصور قد تحولت إلى مقتنيات للزينة ..

قالت البارعة :

- تظنينها تشبهك ؟ أو لنقل : تظنين أنك تشبهينها؟ ..

ولعل السؤال قد أربك الفارسية ، فصمتت ..وقد ابتسمت ابتسامة خفيفة اجتهدت في أن تخفيها عن البارعة وابنها ..

وزادت البارعة :

- في هذه الصحراء تعيش الأسود النهّاشة .. وفيها أيضا تعيش الظباء الرقيقة..

قالت الفارسية :

- ألا تخاف الظباء الأسود ؟

قالت البارعة :

- تخافُ الظباءُ الأسودَ ، ويحدث أن تخافَ الأسودُ الظباءَ..

قالت الفارسية في استغراب :

- أتخاف الأسودُ الظباء فعلا ؟

أجابت البارعة وهي تبتسم وتقوم من مكمنها :

- إن كانت ظباء بمثل جمالك ..

ثمّ أشارت إلى جميل ، وهي تقول :

- اسأليه فهو صيّاد غزلان ويعرف ذلك جيّدا..

ونظرت الفارسية إلى البارعة نظرة شزراء ،وأدارت وجهها بشدة مصطنعة الغضب والجدّ..

المشهد الثاني :

نزل الليل ، واستهوى الفارسية جمال ليل الصحراء ، فاستبْقت البارعة قليلا ، وجلست تقلّب وجهها في السماء ، تتأمّل النجوم .. ثمّ تعود لترمي بعينيها الجميلتين نحو الآفاق البعيدة ، في هذه الليلة المقمرة ..

obeikandl.com

وقريبا من الحيّ ، جلس السامران ، دخان وليل،يعالجان النار بالنفخ تداولا ، يبتعد هذا ليمسح عينيه من دموع الدخان ، ليقترب الآخر للنفخ ..

وبينما هما كذلك ، تراءت لليل شعلة نار في آخر الحيّ ..

وقال لصاحبه:

ما تلك النار في الحيّ يا ترى ؟ لا أجدها مألوفة في هذا الوقت وبهذا الشكل..

قال دخان :

- لهذا يقولون الليل حمّال هواجس .. وأنت فعلا حمّال هواجس..أعوذ باللّه من شر غاسق إذا وقب..

قال ليل :

obeikandl.com

- نسيت أنك من غرورك وإعجابك بنفسك ، لا تكاد ترى دخانا غير نفسك ..يا أخي انظر إلى الدخان المتصاعد وإلى ألسنة اللهب ..

قال دخان ، وقد اهتمّ بالأمر :

- لعلّه شيخ الحيّ يعدّ لك نارا يشوي فيها رأسك الفارغ ، ليوزعه على ذوي الحاجة ممن لا يعرفونك..أما من يعرفك فيرضى بأكل الضبّ دون أكل رأسك ..

وما كاد الجدال يحمى بين الرجلين ، حتى علت الأصوات في الحيّ ، وبدت خيالات الراكضين قرب النار ..

وصفع دخان صاحبه على قفاه ، وهو ينطلق جاريا نحو الحيّ ، قائلا :

- ألم أقل لك إنه حريق ..؟ صدق من قال : الليل أعمى لا عيون له ..

وجريا ..

obeikandi.com

المشهد الثالث :

حين وصل جميل ووالدته والفارسية إلى الحيّ،كان الناس قد أطفأوا الحريق ،وتحلّقوا حول رماد الخيمة ..

وقد ذهلت البارعة لِما رأت ، غير أنّ التميمي ترجّل عن جواده ، ووقف يلقي نظرة على بقايا خيمة ضاقت بها الأرض ولم تتسع لها الصحراء.. قبل أن يقول وهو يرفع أحد حاجبيه ، وينظر من جانب إلى الرماد والدخان المتصاعد منه:

- هذا حكمهم ، وقد رضيت به ..

وهرع إلى زريبة مجاورة ، فساق بعض ما له من إبل وأغنام قليلة ..ثم اقترب من والدته وطلب منها أن تخبر الفارسية بأنهما سيغادران الحي..بينما ستبقى هي عند شيخ القبيلة..

قالت الفارسية وقد سمعت ما أسرّه جميل لوالدته:

- ولماذا يكون عليّ أن أبقى في حيّ لا خيمة لي فيه ؟

قال التميمي:

- ليس عليك أن تتحملي هذا .. وستكونين عند شيخ الحيّ ، وهو رجل شهم ..

قال شيخ الحي وهو يتشبث بلجام جواد التميمي:

- ليس عليك أن تغادر..وسنقيم لك خيمة أكبر منها الآن ..

قال التميميّ ، وهو يبتسم للشيخ :

- يا شيخ حيّ ، لا تضيق بلاد حتى تضيق قلوب .. ومثلي لا يقيم على ضيم ولا يشرب من مُغرة .. وأنت أدرى بأن مما يقال عن الأسد أنه يحتار عند رؤية النار.. وما أنا بالذي يقيم خيمته على كوم رماد .. أستودعكم الله ..

وما كاد جميل ووالدته يسيران خطوات ،آخذَين بلجاميْ الجوادين ، يسوقان نعمهما ، حتى

oubeikandi.com

انطلقت الفارسية خلفهما ، تتبعهما وهي تجري ممسكة بأذيال ثوبها ، صارخة:

- سأرحل معكما .. لا أرغب في البقاء هنا .. كنت أظنّ أنّ الفُرس هي وحدها التي تكيد لكم وتدس لتؤذيكم ..لكنني الآن عرفت أنّ بأسكم بينكم شديد ..ولا آمنُ هنا لمن أحرق خيمة لغريب ، أن يحرق بعدها قلبا لغريبة ..

واستدارت البارعة تحتضن الفارسية ، بينما تبادل التميميّ وشيخ الحيّ نظرة ، هزّ فيها الشيخ رأسه بالإيجاب ، موافقا على رحيل الفارسية ، تسليما لها بمرادها..

وسار الركب تشيّعه عيون دامعة ، وأخرى شامتة..إلى أن غاب في بحر الظلام وانمحى نائيا..

oubeikanali.com

الحلقة العشرون

المشهد الأول :

كان الملكُ شيرْزاد قد بلغ أقصى درجات جنونه وتوتّره ، وبدا مرتبكا قليلَ الصبر وهو يجلس على عرشه تحيط به حاشيته التي أخذتها الرهبة .. وتكلّم قائد الجيش بادنجَكي،فقال :

- لقد طلبتني يا مولاي ..

قال الملك وهو يشدّ نواجذه على نواجذه من الحنق:

- ما أرانا إلا نمنا على الضيم ، وأبطأنا في معاقبة أعدائنا..وإنّي أريدك أن تعجّل بخروجك إلى هوازن ، وليكن ذلك غدا ..

ثمّ لوّح بقبضته وهو يرغي ويزبد ، يقول :

- واصطحب معك من الجيش ما يكون عاصفةً تُدمّر ومصيبةً لا تُردّ ..وباغِتهم لئلا تخسر من جيشك ما لا يجب أن تخسره في قتال البدو

obeikandi.com

الأجــلاف..وإن ظفــرتَ بهــذا التميمــيّ فــلا تقتله،واستبقِه ، فإنّ لي به حاجة ..

كـان قائـد الجيش يـومئ بالموافقـة ، دون أن يقـول شيئا ..ولعل ذلك من الإشفاق ، وهو يرى الملك يتميّز كالنار من شدة الغضب ..

ولم تكن الحاشية قـد رأت الملـك علـى مثـل هـذه الحال ..كان شبيها بوحش جريح ، آلمـه مـا فعلتـه به هوازن ، وما ألحقه به ذاك الفتـى التميمـيّ مـن العار ..لـذلك لـم تكـن معركتـه ضـدّ هـوازن هـذه المرة، كباقي غزواته ضد أحياء العـرب .. وقـد بـدا أنــه يريــد اســتعادة شــيء ذهــب منــه ..لــيس بالضـرورة زوجتـه راونـد ، بـل ربمـا هيبتـه أمـام شـعبه وأمـام القبائـل العربيـة .. ولـئن سـقطت هيبتـه تلـك ، فـإنّ الجـرأة عليـه سـتذهب بملكـه وتعصـف بعرشـه .. وسـتجرّئ عليـه كـل مـن هـب

ودبّ ..لذلك رفع صوته مزمجرا بينما قائد جيشه ووزراء حربه يغادرون القصر للاستعداد للمسير :

- يقول العرب في ما بلغني من أمثالهم (إذا شاب الثعلب نتفت فروته الغربان) .. فلننتف ريش الغربان قبل أن تتجرأ على دسّ مناقيرها في فروة مملكة فارس ..

المشهد الثاني :

كان الصمت مِن وقْعِ الحادثة ومرارة الإحساس بالظلم ، يخيّم على ركب الثلاثة وهم يوغلون في تلك القفار الرهيبة من صحراء العرب ..وقال التميمي وهو يتأمّل الأفق البعيد ، تتمايل أمامه العير ، وتحثّ رؤوسُ الماعز والضأن مشيها مجهَدة:

يا دار جدّي ..أقلّي اللومَ يا دارُ
فالظلمُ يُلجئُ ، والتعييرُ كسّارُ

والمرء يَرجِع للأهلِينَ إن غدرتْ
به السيوفُ، وأضحى ما لهُ جارُ
وما الإقامة في أرض إذا طعنتْ
ظهرَ الغريب، وأقرتْ ضيفها النارُ ؟
وللغريب إذا سارت رواحلهُ
بدون زادٍ بنصف الليل ، أعذارُ

كانت البارعة تستمع إلى ابنها وهو يحدو حداءه الحزين الذي يحرك الصخر ، فترقّ لحاله،وتستشعر مبلغ جرحه من قلبه .. فتغمض عينيها ، وتذهب برأسها يمينا وشمالا مع الكلمات..

بينما كانت الفارسية تعالج قطرة ساخنة من ماء وملح ، تعلقت بشفرها الطويل لحظات ، قبل أن تتحدّر على خدّها .. وكانت مهتمة ألا يلاحظ التميميّ أو والدته ذلك .. ولذوات الشأن من النساء

obeikandl.com

أخلاق صارمة في منع إظهار عواطفهنّ أو إبداء حالات ضعفهنّ .. فتكتفي الواحدة منهنّ إن كان لها جرح ، بأن تفتح عنه الضماد ليلا حين ينام الناس وتهدأ العيون ..

قالت البارعة :

- إذا أغذذنا السير ، وأقللنا النزول ..فسنبلغ حيّ بني تميم قبل منتصف الليل..

وما كادت تنهي كلامها ، حتى أوقف التميميّ جواده ، واستوقف والدته على جوادها، وألقى بصره بعيدا يتأمّل غبارا كشف في تلك اللحظة ثلاثةَ فرسان ينحدرون من ربوة.. وطلب من والدته والفارسية النزول ، والاستظلال بظلّ شجرة سدر كبيرة ، سرعان ما أحاطت بها الجِمال والأغنام ، تناوش نبقها..

ولم يكن التميميّ قد نسي أنّ ملكَ الفرس قد وعد بجائزة لمن يحمل إليه رأسه .. ولم يكن

يجهل أنّ في ناقصي المروءة من العرب مَن يمكنه أن يقدّم حتى شرفه لملك الفرس ، طمعا في رضاه أو جائزته ..وفي نسائهم مَن سوارها أغلى عندها من معصمها.. وإلا لما كان حال قبائل العرب ما كانت عليه حينذاك من التشتت والهوان ..

واقترب الفرسان الثلاثة ، يتبعهم الغبار ، وتسبقهم ظلالهم وقد استدبروا شمس الضحى .. وتحسّس التميميّ سيفه .. وشدّ لثام الريبة على وجهه ..

وما هي إلا لحظات ، حتى أحاط الثلاثة بالركب،إحاطة السوار بالمعصم .. ودارت الخيول حول الفتى التميميّ، تناوره ..ودار هو ممسكا بسيف يتبعها بعينيه الجارحتين اللتين تعلوان اللثام، بما يبدو فيهما من الحزم ورباطة الجأش.. ونطق أحدهم فقال :

ou eikandu.com

- صــــيد ثمــــين ، وغنيمــــة بــــاردة .. رأس التميميّ،وزوجة ملك الفرس..

وأدرك التميمـي أنّ هـذه الغـارة مـدبّرة عـن علـم وقصد وترصّد .. فكشف عن وجهه ، وهو يقول :

- لا يقال للأسد بـين الثعالـب صـيدا ..بـل يقـال لبقايا الثعالب بعد معركتها مـع الأسـد ، طعـام غربان وضباع..

وفي لمح البصر انطلق رمح ، شقّ المكان ، وفاجـأ الجميـع ، واسـتقرّ فـي صـدر أحـد الفرسـان..وكـان التميميّ يعرف أنّ أمه مسعّرة حرب وحامية ظهر .. وكانت هـي مـن رمـت هـذا الفـارس فأوقعتـه عـن سـرجه هامـدا .. بينمـا وجـدها التميمـي فرصـة سانحة ، وقـد دبّ فـي الفارسـين الـذعر ، لينطلـق كالسهم نحو أحدهما في مراوغة ، وليستدير نحـو الثــاني الــذي أراد أن يطعنــه مــن خلفــه إذا رآه

مستقبلا صاحبه ، ممزقا خصره بضربة قاتلة من سيفه..

وما كان من الفارس الثالث ، وهو يرى ما حلّ بصاحبيه ، إلا أن ينطلق هاربا على جواده ، تملأ الريح عباءته من خلفه..

كانت البارعة حينها تقف أمام الفارسية تحميها وتطمئنها .. بينما اقترب التميمي من الفارسين المدعثرين ، يكشف عن وجهيهما لثاميهما ..

قالت أمه مندهشة :

- هذا الكاسر ... أما هذاك فلم أعرفه ..

قال التميميّ:

- هذا الأسير الفارسي الجريح ، أحد الاثنين اللذين هاجما رعاة حيّ هوازن.. كنتُ أنتظر ذلك من الكاسر..

قالت البارعة :

- تنتظر إغارته علينا طمعا في جائزة الملك؟

obeikandl.com

قال التميمي:

- بل أنتظر خيانته لأبيه بتحرير الأسير الفارسي ، وتعاونه مع الفرس..

قالت البارعة :

- هل ندفنهما ؟

فردّ التميمي :

- سيعود الناجي الثالث إليهما .. وما هو بظني سوى وثاب ، ابن عمّ الكاسر..

مغادرين المكان ، رمق التميميّ من طرف خفيّ ، الفارسية وهي تبصق على الكاسر والفارسيّ ، مبدية علامات للاحتقار في ملامح وجهها ..

واستأنف الركب مسيره ..بينما صدى كلمات يترد في جنبات ذاك الوادي :

وما الإقامة في أرض إذا طعنتْ

ظهرَ الغريب، وأقْرتْ ضيفها النارُ ؟

وللغريب إذا سارت رواحلهُ

obeikandl.com

بدون زادٍ بنصف الليل ، أعذارُ

المشهد الثالث :

تحركت جحافل جيش الفرس نحو هوازن ..وشيّع أهل فارس جنودهم وهم يغادرون أسوار مدينتهم ، ونثرت النساء الرماد على المقاتلين ، ولطخن أثوابهم بالطين ، وهن يرددن:

- لن تغتسلوا من هذا الرماد والطين .. حتى تغسلوا عار فارس الذي لحق بها ..

بينما اصطف الأطفال ، يصيحون وهم يصفقون:

- لا تعودوا بدون رأس التميميّ.. لا تعودوا بدون رأس التميمي ..

وأطلّ الملك من نافذة في قصره ، يرفع يده لجنوده الذاهبين إلى الحرب ،وفي عينيه بريق غريب ، يمتزج فيه الحقد والخوف.. ولعله لأول مرة يشعر بالخوف يدب في قلبه وكيانه..وقد أحسّ أنّ شيئا ما هوى ، انكسر ، تغيّر ، بتجرؤ التميمي وهوازن على موكبه..

obeikandl.com

ورغم ذلك ، فلـم يـنس طبعـه ونزواتـه ، وهـو يقـول لقادة جنده مقهقها:

- لا تنســوا أن تحــافظوا علـــى أرواح جمـــيلات هوازن ، ولا تفسدوا جمالهنّ بسيوفكم ..
فأنا أريدهنّ سليمات ..

ورغم كل ما كان الملك الفارسيّ يحـاول أن يتظـاهر به من التماسك واللهو ، فقد بدا أنّ شيئا كبيرا قد بدأ يظهر في الأفق البعيـد ..كعـارض سـحابة سـوداء ، لا يعرف كل طرف من فارس والعرب،ما الذي تحملـه لـه ،من شرّ أو من خير...

كان من علامات هوان العـرب ، أنّ كـل حـروب فـارس ضــدهم ، كانــت تــدور فــي أحيــائهم ، لا فــي مــدنها المحصنة..

وبينما كان جيش فارس يغادر المدينة المحصنة،نحو هوازن ..كانت هوازن مهتمة بالتخرّص حول من قتل الكاسر من العرب ، للثأر منه ..

obeikandl.com

الحلقة الحادية والعشرون

المشهد الأول :

كامرأة ..تعرف الصحراءُ فطرةً كيف تكون جميلة ليلا .. وكيف تعمد حين يحلّ الظلام إلى علبة حليها ، فتخرج منها نجومها وأقمارها ، تتزيّن بها..

وقد هبط الليل الآن ، فاستقبلته بزينتها المتلألئة، وعطورها التي تحملها نسائمها ، من كلّ طيّب وشذيّ من نباتاتها وأزهارها ..

في تلك الساعة ، وقد سيطر الظلام على الوهاد والنجود، كسلطان قاهر، كان ركب التميميّ يقترب من الحيّ، وقد أنهك التعب أكباده ، بشرا وأنعاما.. وحين تُسْلمُ الصحراء راكبا من عواءات الذئاب إلى نباح الكلاب ،ومن الظلام الذي لا عيون

obeikandi.com

لـــه ، إلـــى عيـــون مـــن النيـــران الموقـــدة هنـــا وهناك،فذاك دليله على أنه قد بلغ منزلا ..

وحـين بـدت خيـالات خيـام الحـيّ ، ولـم يعـد بـين التميميّ وبين أن يبلغها ، غير مرمـى بصـر.. خـرج مـــن الظـــلام فارســـان، حـــدسَ التميمـــيّ أنهمـــا حارسـان، واقتربـا منـه يسـألانه عـن نفسـه ،وعـن مقصوده ومراده..

كان الليل قد انتصـف ،أو اقتـرب مـن ذاك .. وهـبّ أحد الفارسين مترجّلا ، يتقـدّم الركـبَ إلـى مـدخل الحيّ ،ولسانه لا يكفّ عن عبارات الترحيب ، بينمـا طار الآخر إلى الحـيّ ..ومـا هـي إلا لحظـات ، حتـى كان الركب على مدخل الحيّ ، حيـث اجتمـع أنـاس يصـنعون للقـادمين بـابَ قُـدوم، وأبـواب الأحيـاء أهلها وأعيانها..

obeikandi.com

كانت كلمات الترحيب وحسن الاستقبال تتطاير من هنا وهناك ، وتقع في مسمع جميلٍ موقعا حسنا ينشرح له صدره وتسرّ نفسه..

وفتح الحيّ عينيه على الجلبة ، وألقى عن جسده غطاء النوم الرقيق ، وقام يستقبل الضيوف..

المشهد الثاني :

طلع النهار على حيّ هوازن ، في ثاني إصباح من ليلة لا خيمة فيه للتميمي والبارعة ، منذ سنوات .. ولم يكن للناس في ذاك الصباح من حديث غير حديث الخيمة التي احترقت ، والكاسر الذي قُتل.. وشرّق الناس في آرائهم حول الحادثيْن وغرّبوا ..وأتْهموا وأنجدوا .. وطوَوْا ونَشَروا..

واهتزّت قلوبٌ كثيرة منهم لرحيل التميميّ كما لم تهتزّ لمقتل الكاسر ، والقلوب ذوات النبض المنضبط بميزان العدل ، ميّالة إلى الإنصاف،وإلى

oubeikanbu.com

التعلّق بأهل الإحسان والمروءة .. تماما،كما تقع القلوب السوداء على أشكالها ، فتتآلف وتتحالف..
وقال رجال إنّ عارا سيلحق هوازن بما حدث للتميميّ ووالدته من إحراق خيمتهما ، ومن إغارة الكاسر ووثاب عليهما لأجل جائزة ملك الفرس ..
وقالت نساءٌ إنّ شرخا سيصيب قلب الرباب على فقد أخيها ..وقالت أخريات ، بل على فقْدِ التميميّ ، وما كان ما تُظهره نحوه من الكره سوى ما تقول عنه العرب (تسبّ لأنها تحبّ) ..
أما شيخ الحيّ فقد ركبه حزن كبير ، وكان مقتل ابنه أهون عليه من خروج التميميّ من حيه مظلوما .. وكان مما تعلمه هذا الشيخ الحكيم من الحياة ، أنّ خروج الملائكة من مكان ، إيذان بدخول الأبالسة إليه .. وما خرج رجل صالح من قرية مغاضبا ودموعه في عينيه ، إلا وكان ذلك نذير شؤم كبير وشرّ مستطير لها..

obeikandl.com

وفـــي ســـفح الجبـــل الأحمـــر ، قريبـــا مـــن قطيعيهما،جلس ليل ودخان ، يهرفان .. يعلكان ما حـدث ومـا قيـل ، بقليـل مـن العقـل وكثيـر مـن الجنون ..

قال ليل مخاطبا صـاحبه ، والحـزن يغلّـف ملامحـه وصوته :

- بعد رحيل التميميّ والكاسر ، خَـلا لـك المكـان لتكون أنت فارس هوازن وشاعرها رغم ما بك من طول وهَبَل ..

ورفع دخان يده ، وهمّ أن يصفعه على قفاه ، لكنه أمسك ولم يفعل ..وقال :

- وآن لك أنت أن تكون العنزة السـوداء القصـيرة التي كانت للبارعة..

قال ليل :

obeikandl.com

- بعد البعير يبقى البعر.. وبعد الأسُود تستأسد الثعالب.. وما افتقدنا الكاسر وهو ابن الحيّ كما افتقدنا التميميّ وهو الغريب ..

قال دخان :

- أما أنا فما افتقدتُ الكاسر والتميميّ وهما رجلان ، كما افتقدتُ الفارسية وهي امرأة..

ولعلّ الموقف قد عصف بأضلاع ليل وحرّك عواطفه فقال :

- هل سأفتقدك يوما ما يا صاحبي ؟ أو هل ستفتقدني ؟

قال ذلك وأجهش بالبكاء ، واقترب يعانق دخانا،صدرا لخصر ، لطول ذاك وقِصر هذا .. وسرعان ما أراد دخان أن يكسر دائرة الحزن حوله وحول صاحبه ، فقال وهو يبعده متأففا :

- أف..أبْعِدْ روائحك عني يا قنفذ الرماد ..منذ متى لم يمسّكَ ماءٌ غير ماء المطر؟ ثمّ إني لا

obeikandi.com

أثـــق فـــي أخلاقـــك وحســـن نيتـــك حـــين تضمني،فأنت رجل خيالك واسع ، وقد تضمني وتغمض عينيك وتتخيّل الفارسية..

وابتعد ليل عن صاحبه في حنق وهو يقول هامسا محاذرا من أن يسمعه صاحبه :

- صــدقوا إذ قــالوا : (صــاحِبْ أتانًــا ولا تصــاحِبْ دخانًا)..

المشهد الثالث :

كـان صـدى ضـربات يتـردّد ،عائـدا إلـى الحـيّ مـن الجبـل المجـاور..بينمـا كـان غلمـان يـدقّون أوتـاد الخيمــة التــي أمــرَ شــيخ الحــيّ، الحبــاب بــن عمرو،بنصبها لحفيده القادم من حيّ هوازن ، بعد أن قضى ليلته بعد وصوله، في خيمة جده..

وقــد تحــوّل الحــيّ إلـــى عــرس كبيــر ، دبّ فيــه الفرح،وتطاير الصبيان كقطع الصوف بـين الخيـام

oberkandil.com

في خفة ومرح ، وأدارت النساء المغازل على سيقانهنّ وهنّ يغنّين مبتهجات ...

وقد وجد التميمي ووالدته في حيّ بني تميم من حسن الاستقبال ما أنساهما وعثاء السفر،ولأْواء الانتقال ، وأذهب عنهما ألَمَ ما حدث لهما في هوازن مما ألجأهما إلى الخروج ليلا ..

وكان يمكن للفارسية أن تدرك مقام جميل عند بني تميم ، مما حظيَ به من استقبال..ولم تكن بالتي يُعرف من وجهها إن كانت سعيدة أم كانت حزينة ..

غير أنها ما لبثت حين دخلت الخيمة بعد اكتمال نصبها وتأثيثها ، أن جالت بعينيها فيها ،وهي تقول :

- كقصرٍ..

قالت البارعة :

- لعلّه الشوق إلى حياة القصور ..

ولم تجب الفارسية ، بينما قال التميميّ:

- ما يميّز خيمة المرء في قومه عن خيمته في غيرهم ، أن خيمته في قومه لا تُحرق في الظلام ..

وشعرت البارعة بذؤابة سيف تقطع جزء من كبدها لكلام ابنها ، وأرادت أن تقول شيئا ، ثم أمسكت .. لكنها اهتدت إلى أن تنتصر لحيّ أهلها في هوازن بطريقة أخرى ، فقال توجه كلامها للفارسية:

- هناك في هوازن كنا أقرب إلى بلاد فارس ..أما هنا فنحن أبعد..

قال التميمي :

- لكنّ يد فارس طويلة ، وهي تصل إلى أبعد من حيّنا هذا ..

وما كاد جميل ينهي قوله ذاك ، حتى كان عمه سداد على الباب يستأذن في الدخول ، وأذن له فدخل يقول وهو يضرب كتف ابن أخيه مداعبا:

- أهناك ما ينقصكم في منزلكم الجديد يا فتى؟

قالت البارعة :

- ما قصّرتم أبدا ..وما الذي يطلبه الضيف أكثر من هذا ؟

قال سداد:

- أتقولين الضيف يا بارعة ؟ ليت البارق كان هنا ليسمع ذلك منك .. ؟ أليس حيّ المرأة هو حيّ زوجها .. ؟

وابتسمت البارعة وهي تهزّ رأسها توافقه .. بينما زاد :

- ولم تخبرني أيها الشقيّ بأنّ لك زوجة بمثل هذا الجمال ...؟

oubeikandi.com

وكتمت البارعة بسمة خفيفة ظهرت على شفتيها .. بينما أشاحت الفارسية في كِبْر وغرور،وراحت بمكر نسويّ تراقب وجه جميل ، وتنتظر جوابه لعمه ..

قال جميل مرتبكا :

- هذه يا عمّ ضيفتنا الفارسية ، زوجة الملك شيرْزاد..

وضيّق سداد بن الحباب عينيه ،ورفع أحد حاجبيه،وأخذ لحيته بيده ، وحملق في فراغ في سقف الخيمة ، كأنما يتذكّر شيئا ..وقال بعدها وهو لا يكفّ عن هزّ رأسه، ورفع حاجبه الأيمن مع تضييق عينه اليسرى :

- تذكرتُ ..تذكرتُ .. إذن هذه هي الملكة راوند..؟

ورفعت راوند رأسها متشامخة وقد وجدت أخيرا من لا يزال يلقبها بالملكة ..واستعادت من شعورها بعزّ المُلك ما كادت تنساه..

obeikandl.com

قالت البارعة :

- نعم هي ذي الملكة الفاتنة راوند التي لم ترَ عيني طول حياتي ، أجمل منها ..تبا لها ما تركت لامرأة ما تفخر به عليها إن جمعهما مجلس فخر.. ثم راحت تتمتم (أعيذها بكلمات اللّه التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة) ..

قال سداد :

- بل أعيذيها من شيطان شعر ابنك ،ومن عينيه الغامضتين..

وقال جميل ، يقاطع عمه ، مسارعا في الدفاع عن نفسه في ارتباك:

- أنا بريء من كل ذلك يا عمّي .. وما أنا إلا رجل قلبه معلّق بالسيف والترس وسروج الصيد ..

قال عمه ، وهو يقرّب عينيه من عينيه :

obeikandi.com

- قل هذا لغيري ، فلا يعرف ما في عين رجل من تميم غير رجل من تميم .. هل تظنني البارعة يا فتى ؟ أنا سداد بن الحباب ..

قال سداد ذلك ، وانطلق خارجا وهو لا يكف عن القهقهة ، والقول :

- فتى كوالده ، غامض متكتّم ،يقطّر الكلام تقطيرا كفم السقاء الموكوء،ولا يكاد يبوح بشيء ..

obeikandl.com

obeikandl.com

الحلقة الثانية والعشرون

المشهد الأول :

كانت والدة بانة قد لاحظت ما طرأ على ابنتها من النشاط والانشراح الزائد، منذ حلول جميل بالحيّ .. غير أنّ نشاط بانة لم يكن صرفا ، وقد خالطه من هواجس الأنثى ما يقتضيه وجود الفارسية في خيمة ابن العمّ العائد بعد طول غياب ..

ولعلّ بانة لم تخِفَّ روحا وتنبسطْ وجها ، منذ فراقها لزوجها، كما هي عليه اليوم ..غير أنّ إحساسها بوجود راوند قد عكّر مزاجها ، وأفسد نشوتها ..

وكان للفارسية راوند في نظر بانة ذنبان عظيمان .. أحدهما أنها جميلة جدا.. وثانيهما أنّها أقرب منها إلى ابن عمها جميل، وذلك مما يشعل نار الغيرة فيها .. وكان هذان الذنبان كافيَيْن لتكره بانةُ ضيفة الحي الفارسية كرها يعمي عينيها ويحجب عقلها..

ولعل ذلك ما حوّلها إلى لبؤة شرسة حين ذكرت والدتُها أمامها الفارسيةَ وقالت عنها إنها حورية من الجنة ..

قالت بانة بغضب :

- لا حوريات في بلاد فارس ، ولئن كانت مملكة فارس جهنّم ، فإن نساءها من شيطانات النار..

ولعل الأمّ قد لاحظت حدة ابنتها ، فاقتربت منها تحدجها بنظرة حاولت فيها قراءة عينيها،وهي تقول :

- وما الذي يلسعكِ من الثعابين حينَ تُذكر هذه الفارسية ؟

قالت بانة وهي تدفع عن نفسها ما قد يخطر ببال والدتها من الأسباب أو التخمينات :

- وما عساه يغضبني منها وأنا أجمل من النار .. ولكلّ زهرةٍ عبيرُها المختلف..؟

obeikandl.com

وكان التشبه بجمال النار مما دأبت عليه نساء العرب، في الافتخار بجمالهنّ ..

قالت والدتها :

- ومن أخبرك بما تدّعينه من جمال ؟

قالت بانة :

- المرآة أخبرتني ..

قالت والدتها ، بكل خبرة السنوات :

- المرأة القبيحة هي وحدها التي ترى جمالها في المرآة.. أما المرأة الجميلة حقا ، فترى جمالها في وجوه الناس وفي شهقات عيونهم..

وانتبهت أمّ بانة إلى ابنتها وهي تحاول شقّ منديل قماش كان في يدها ، بينما عيناها قد غرقتا في الدمع ، فقالت :

- صدق الذين قالوا : عندما يغار الرجل يصمت،ويكره نفسه ..وعندما تغار المرأة تبكي، وتكره الرجل ..

obeikandl.com

قالت بانة ، وهي تمسح عينيها ، وتتظاهر بعدم البكاء :

- أبكي ؟ وما الذي يبكيني؟ ثم أيّ رجل هذا الذي سأكرهه ؟

ولم يقطع كلامهما غير سدّاد ، والد بانة، وهو يدخل الخيمة ويسأل :

فيمَ تختصمان، ولا تختصم امرأتان عادة إلا في ما لا يسمن ولا يغني من مسغبة ؟

ولم تجيباه ..

المشهد الثاني :

كانت البارعة والفارسية على باب خيمتهما تهمان بالدخول ، لكنهما توقفتا إذ ترامى إليهما صوت جميل وهو يعالج أبياتا من الشعر ، بدا أنها تتأبى ويستلها استلالا ، يستجمعها به ..يقول :

obeikandi.com

الجبنُ يُقعدني.. ماذا أقول لها ؟

وقد علقتُ بها – تبا لها- ولَها

وما أظنّ سوى أني إذا نظرتْ

أصابَ بؤبؤُها في النفس مقتلَها

وعند مثلي قتال الأُسْدِ أهونُ لي

مِن أن أقابل في النسوان أجملَها

ورفعت البارعة وجهها عن الخيمة ، واستدارت إلى الفارسية ، وهي تمطّ شفتيها ، وترفع حاجبيها،وتهزّ رأسها ، كأنها تقول لها :

- إي نعم ..

ولعلها فعلت ذلك وفي نيتها أن تنبّه الفارسية إلى أنّ ابنها يخفي ما لا يبدي من العشق والوله،وهذا دليل ذلك ..

obeikandl.com

واقتحمت المرأتان الخيمة ، وفوجئ بهما جميل،فكفّ ، واحمرّ وجهه ،كمن بوغتَ متلبسا بجرم ..

وقالت البارعة :

- يبدو أن هذه الفارسية تحبّ الشعر ، فلم لا تقول لها شيئا منه ؟

قال التميميّ وهو يهرب من الحرج الذي وضعته فيه والدته :

- ربما لا يروق الشعر العربيّ لبنات فارس ..

قالت الفارسية توجه كلامها للتميمي ، لأول مرة،منتفضة :

- أنت لا تفتأ أيها المتعجرف تردد : الفارسية ..الفارسية ..الفارسية .. وآن لك أن تعرف أنني لستُ فارسيةً ..فأنا عربية مثلك ، قدري أن أتواجد في المكان ولا أنتمي إليه ..من وجودي في مملكة فارس ، إلى وجودي في هوازن ،إلى

obeikandl.com

وجودي هنا في حيّ قومك وجدك وأبيك.. وأمري لا يختلف عن أمر أيّ شيء جميل عند العرب، يعجبُ ملك الفرس فيقرر امتلاكه،امتلاك طينته لا روحه .. فلتكفّ عن تسميتي بالفارسية وإلا غادرتُ حيّك هذا أو حتى خيمتك، وما يبقيني هنا عندك إلا وجود البارعة ، أما أنت فلا شيء يرغّب في جوارك،وصخرة صمّاء في رأس جبل ، آنس للنفس من مغرور صامت جامد ..

وابتسمت البارعة في انتشاء وشعور بالغبطة،وهي تراقب ثورة هذه اللبؤة الفارسية،وقالت:

- هذا أول الأمر .. وهكذا تبدأ الأمور عادة عند المهرات الشرسات ، قبل القبول باللجام والرضى بالسرج ...

obeikandl.com

والتفتت راوند إلى البارعة ، تأكلها بعينيها ، قبل أن تنصرف خارج الخيمة وهي تهزّ أذيالها هزّا ..لتغمض عينيها ، وتسحب إلى صدرها من الهواء ما تمسح به آثار سرّ كبير أخرجته منه منذ لحظات ، وكانت طوال أيام ماضية تحسّ سرّها ذاك ثقيلا على قلبها ، مثل صخرة كبيرة على جناح طائر صغير..

وفي الخيمة ، كانت البارعة تبتسم لابنها في ظفر وتقول :

- هذا أوان الشعر ، وتبا له إن لم يأت في وقته ..

وبدا أن ابنها يفهم بعض ما تقصد أمه ، ولا يفهم الكثير منه .. أو لعله يفهم أكثر مما تفهم أمه، لكنه لا يكاد يصدّق أنّ ملكة فاتنة من بلاد فارس ، قد تثور في وجهه كلبؤة ، وتعيّره بأنه حجر ، فقط لأنه ربما لم يعطها من الاهتمام أو الانتباه ما يليق بها ..

غير أنّ ما فاجأه من كون هذه المرأة من العرب لا من الفرس ، جعله يضيع في دوامة من الأفكار التي لا تنتهي ..

المشهد الثالث :

نزل غبش المغرب على الصحراء.. ونزل معه غزاة فارس عن صهوات جيادهم ، وعسكروا خلف جبل كبير ، مطلّ من بعيد على مضارب هوازن .. وقد أمر القائد بادنجَكي جنوده بأن يلزموا الهدوء وألا يثيروا من الأصوات أو من الأفعال ما يشي بوجودهم .. ونهاهم عن إشعال النار أو ارتقاء قمة الجبل ..والحرب خدعة أو مباغتة..
وقال القائد بادنجكي وقد جلس إلى العشاء وحوله قادة جيشه ، بينما تفرّق الجنود في ذلك الوادي،في حاجاتهم ولتناول عشائهم :

obeikandl.com

- العشاء أوّلا ..لأن قوة المرء تخـور بـالجوع .. ولا تكثـروا لـئلا تثقُلـوا .. فـإذا انتصـف الليـل باغتناهم كالقضاء إذا حُمَّ..وفعلت السيوف في رجالهم وأطفالهم فعلتها ..

قال أحد القادة :

- ماذا عن النساء ؟

قال القائد بادنجَكي :

- النساء منهن الدميمـة ، وهـذه للسـيف ، شـأنها شـأن الرجـال والأطفـال والعجـائز ..ومـنهن الجميلة ، وهـذه لا يقضـي فيهـا حيـاة ولا موتـا غير الملك ..

وضحك الجمع وقد فهموا مغزى قائدهم..

بينما راح هو يرسم على الرمل أمامهم ، ما يشرح به خطته في الهجوم على حـيّ هـوازن الـذي كـان نباح كلابـه يصـل إلـى معسـكر الفـرس فـي تلـك الساعة..

obeikandi.com

الحلقة الثالثة والعشرون

المشهد الأول :

عسعس الليل.. وانطفأت نيران السامرين.. وهدأ حيّ هوازن إلا من شخير مُهر هنا أو نعيق بوم هناك .. وكانت الكلاب تشتد في نباحها مجتمعة،نائية حينا، ومقتربة حينا ..

لم يكن في هذا الليل ما يشي بأنه ليل موت وشر، سوى ما أضمره جنود ماجنون قساة من الفرس ، كانوا في تلك اللحظات يقتربون من الحيّ ..

وقد لمحَ أحد حراس الحيّ ، أشباحا تلوح في الظلام وتقترب.. ومال جزء كبير منه إلى أنه جيش الفرس .. لذلك أسرع إلى الخيام يصرخ منذرا ومحذّرا ..

ودبّ في أهل الحيّ الفزع ، وطاشت العقول،وجرى الناس في كل اتجاه وقد فاجأهم الخطر.. ووقف

obeikandl.com

شيخ الحي ، الشيخ حييّ بن عوف ، يصيح بأعلى صوته ، يدعو الفرسان والمقاتلين إلى مواجهة الغزاة ..

وأدرك الفرس أنّ أعداءهم قد كشفوهم..فأسرعوا إليهم يبادرونهم بالسيف والرمح،يمزقون الأجساد في عَماية الليل ، لا يفرقون بين كبير وصغير ..ويرمون الخيام بمشاعل النار،وحالهم حال الذئاب المفترسة التي لا ترحم ..

وما هي إلا ساعة ، حتى قضى الله في حيّ هوازن أمرا كان مفعولا ، ووقف قائد الجيش يقهقه في رعونة ، ويوجه جنوده إلى وجوب القبض على شيخ الحيّ وابنته وزوجته ...

وظفِرَ الجنود بالرباب، ابنة الشيخ ، وجميلة الحيّ،لكنّهم لم يظفروا بوالدها ، فقد يكون من بين القتلى المتناثرة أجسادهم وأشلاؤهم هنا

وهناك ..أو من بين الذين فرّوا ولم تصبهم سهام الجنود وهم يبتعدون عن الحيّ ..وكان ذلك حال زوجته التي ما عثر لها طالبوها على أثر..

غنّى الموت أغنيته الحزينة على حيّ هوازن بعد منتصف الليل ، وكان دخان الخيام المحروقة، يعلو ليشيّع أرواح القتلى إلى السماء .. بينما الأنّات والاستغاثات التي لا مُلَبّيَ لها،تتصاعد مع الدخان،دون أن تبلغ ما يبلغه في الجوّ .. أو لعلها بالأحرى تتجاوزه إلى رب السماء..

مثل جنديّ احترق نصفُ جسده ، وعلا وجهَه غبَرةٌ وسوادُ دخانٍ ،كان الحيّ في تلك الساعة، وجنود فارس يغادرونه بقهقهات انتشاء رعناء جاهلية..بينما كانت الرباب ما تزال تصرخ ثائرةً،وهي مقيّدة اليدين وقد حملها خاطفوها على حصان قوقازي،ليس له من أصالة الخيول العربية ، غير ما لفرسان فارس من أخلاق البشر..

obeikandl.com

كان قائد الجيش الفارسي منتشيا بنصره الذي لم يعكّره سوى افتقاده لراوند التي كان استرجاعها هدفا من أهداف هذه الغارة ، وأمرا من أوامر الملك شيرْزاد..ولقد استفرغ بادنجَكي جهده في العثور على زوجة الملك السبية لدى هوازن ، لكن دون جدوى .. فكأن الأرض ابتلعتها ، أو لكأنّ السماء التقطتها ..

وكان الليل في تلك الساعة وحشا أسودَ ضخما،يفتح فمه ، ويبتلع تلك الأشباح وهي تنأى عن حيّ هوازن ..

المشهد الثاني :

سرت أخبار هوازن في الصحراء ، نارا في هشيم ..ورقَّ عربٌ وغضِبَ عربٌ وشمتَ عربٌ..وحلفت نساء في قبيلة أن لا يمسّ خضاب الحناء أيديهنّ،ولا الكحل عيونهنّ ، سنة ..حزنا على نساء وأطفال هوازن .. وابتدرَ غيرهنّ من نساء

قبائل عربية أخرى شامتة،عجائن الحناء ، فوشّين بها أيديهنّ وأرجلهنّ ، إظهارا للشماتة والفرح..

وأثنى شيوخ قبائل على ما فعله شيخ هوازن من مهاجمة موكب فارس ، حتى وإن كان ثمن ذلك باهظا..بينما رأى آخرون أنّ مواجهة ملك الفرس انتحار ، وأنّ الرأي في مطاوعته وتلبية أوامره،ومسايرة ظله مشرّقا أو مغرّبا..

وكان ذلك شأن العرب ، في اختلاف رؤاهم وتفرّق صفوفهم ، وضرب بعضهم لبعض، إرضاء لفارس أو نكاية فيها ..

أمّا بنو تميم فقد اهتزّت هزة شديدة ، وتميّزت نارها من الغيظ .. وطارت جلدات أنوف أشرافها من الغضب والإحساس بالعار مما أصاب هوازن ..وليس ذلك غريبا ، فبنو تميم فرسان شرفاء ، لا يفرّطون في الشقيق لابن العم،ولا في ابن العمّ للغريب.. وهم وإن كانت بينهم وبين هوازن

obeikandi.com

ثارات وخصومات ، فإنهم ليسوا ممن يطعن ظهرا أو يتشفّى في مصاب بسيف الفرس..
وقد قدِمت أعداد من أهل هوازن ، نساء ورجالا إلى حيّ بني تميم، مستنجدين ،مستجيرين.. وقد آوى بنو تميم قاصديهم من هوازن ، وأنزلوهم من المنازل صدورها ، بينما اكتفوا هم بالأعتاب..
وهاهو ذا منادي الحيّ ، يسير بين الخيام ، يدعو الناس بصوت عال إلى الاجتماع على خيمة شيخ الحيّ ، الحباب بن عمرو ..
وهرع الناس ، وترك أهل الشغل ما كان يشغلهم ، ورموا ما في أيديهم ..آمّين مكان الاجتماع..
لقد مرّ حينذاك على مصاب هوازن ثلاثة أيام بلياليها ، وجفّت على قتلى هوازن دماؤهم،وخمدت نيران خيامهم ..
كان الصباح حزينا ، وقد نثرت فيه السماء على الأرض بعض رذاذ مطر ، فعلت رائحةُ التراب

تشـعل فــي النــاس حــبّ هــذه الأرض ، ووجــوب الدفاع عنها وحمايتها .. ومن لا يستطيع أن يسقي أرضـا بدمـه ، فلـيس أهـلا لأن يشـرب مـن مائهـا ..ومن لم يكن أهـلا للـدفاع عـن شـبر أرض ،فهـو أبعد من أن يكون أهلا ليعيش على ذلك الشبر..

كان جميل واقفـا فـي صـدر المجلـس ، إلـى يمـين جده ..وبجانبه عمه سداد .. بينما وقف الشيخ حيي بن عوف ،شيخ هـوازن، إلـى يسـار الشـيخ الحبـاب بن عمرو..

ولـم يحـدث منـذ ثلاثـين سـنة أن التقـى الحبـاب وحيي ، إلا في ما تقـابلا فيـه مـن معـارك ، تفانيـا فيها ..

وقال شيخ حي بني تميم :

- وإنّ جـرحَ الكاحـل حمّـى للرسـغ وسـهر للعـين ..وهوازن منا ، أخٌ لأخٍ.. ودمها دمنـا .. وقـد بلـغ السـيل زُبيتَنـا الأعلـى التـي كنـا نظـنّ أنـه لـن

يبلغها ..وآن أوان الجدّ ، فإما باطن الأرض وإما ظاهرها.. وما الفرس سوى ذئاب لا يردعها غير النار ..وقد رأى جميل بن البارق رأيا، لا أرى لي حقا في الاستئثار به دونكم ، ولا يعرب عن مراد المرء أفصح من لسانه، فليقل جميل ما رأى .. وليقل قبله الشيخ حييّ بن عوف ما يستوجبه حقه في القول وهو صاحب الجرح والمصاب..

ومسح الشيخ حييّ دموعه بما مزّق قلوب الناس،وعلت هينمة ، سرعان ما هدأت إذ بدأ الشيخ حيي ، شيخ هوازن ، كلامه قائلا :

- المصيبة ملجئة .. وقد كسرت الفاجعة ظهورنا،ولم نجد بعد اللّه من يسندنا غير إخواننا من بني تميم .. وبنو تميم أمان ..غير أنّ صرخة الرباب ستبقى أمانة في عنق الصحراء ..ودينا يطارد سيف كل فارس ، حتى

ooreikandu.com

ينتصر لدموعها ولعينيها الحزينتين وهما ترمقانني في استنجاد وإعذار ..وكان ذلك آخر ما رأيته منها .. ولا أزيد ..

قال شيخ هوازن ذلك مكتفيا ، وقد بدا أن عبرته قد غلبته ، فدسّ وجهه في طرف عمامته ..

وقد اهتزّ الناس لذلك منه ، وزلزلوا زلزالا شديدا،ودمعت عيون كثير منهم ..

وقام جميل وقد عقد عمامته السوداء عقْدَ من نوى الحرب ، أو جاء وقتُ جِدّه.. وقال :

- ألم تقل الصدّيقة عائشة رضي اللّه عنها عن شدة بني تميم : (لو أبطأ الإسلام لأكلت بنو تميم الناس)؟ فأين بنو تميم اليوم والفرس تأكل أحياء العرب حيا حيا .. ؟

ألم يقل النبي صلى اللّه عليه وسلم (أشدّ أمتي على الدجال بنو تميم)؟ فأين هذه الشدة من دجال الفرس ؟

obeikandl.com

يا بني تميم .. ألم يفرش رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عباءته لجدكم قيس بن عاصم السعدي ، قائلا عنه : (هذا سيّد أهل الوبر) ؟

فأيّ شرف تضيّعون اليوم وساسان تطأ العرب بنعالها ؟ واللّه إنّ غدكم كأمس هوازن .. وما أنتم عند الفرس سوى سابق ولاحق.. وإني أزمعت أمري على حشد قبائل العرب لمواجهة فارس ..فإن كان لا بدّ لنخوة العروبة أن تنتصر، فإننا نقبس من سيوف أجدادنا في ذي قار .. وإن كان لا بدّ للإسلام أن ينتصر ، فإننا نقبس من قادسية عمر بن الخطاب ، وقد ربط لها عمامة سعد بن أبي وقاص..

وإن كان لا بدّ من أن نثأر لصرخات نساء العرب ، من نساء النعمان بن المنذر إلى حرائر عبس إلى الرباب كريمة هوازن ، فإنّه ليس أنسب لذلك من هذا اليوم ، إذ مراجل الغضب تغلي والدماء

obeikandl.com

تستثير السيوف.. وإني عارضٌ على جميع قبائل العرب هذا السيف ،وهو سيف العرب، كابرا عن كابر.. فمن شدّ على قبضته بيده من شيوخها ، ودخل في حلفنا لقتال فارس ، فهو أهل لشرف العروبة والإسلام ، ومَن أبى وشايع الفرس ورضي بأن يكون راعيا لخنازيرهم ، فذلك ذلك مبلغه من العار والهوان ..

قال جميل بن البارق ذلك، ثمّ استدار إلى جده الحباب ، فعرض عليه سيف العرب ، فاستلمه بقبضته كما يستلم حبيبٌ حبيبا عائدا من طول غربة.. فابتهج الناس.. ثمّ عرض جميل السيف بين يديه على شيخ هوازن ، فسُرِّيَ عنه بذلك،ومدّ يده يدير براجمه على قبضة السيف بشدة وحزم ..

اهتزّ الحاضرون ، ودمعت عيون بعضهم فرحا .. وأخذ جميل السيف ، فلفّه في قطعة من القطيفة المطرّزة

obeikandl.com

..قبل أن يضعه في جلبّان من الجلـد ، ويعطيـه لعمـه سداد يحفظه ..

المشهد الثالث :

كـان أشـدّ مـا يعصـرها فـي تلـك اللحظـة ، هـو أن تُعـرض علـى الملـك الأعجمـيّ كمـا تُعـرض السـلعة ..وحزّ في نفسها أن تنتقل إلى أرض لا مسند لها فيها إذا مالت ، ولا ماسح على جبينها إذا حُمّت..

وهي ذي تقـف أمـام هـذا الملـك الفارسـيّ المسـتهتر الذي طالما سمعت عن رعونته ..

كانت مقيّدة ،حافية ، مغبرّة الثيـاب ، فـي حـال يرثـى لها ، لو كان الفرسُ يرثون لحال مستضعف..

وقهقه وهو يقوم عن عرشه ويقتـرب منهـا مـادّا يـده إلى وجهها ..بينما لم تجد هـي سـوى أن تبصـق علـى وجهه..فثار لذلك ثورة ، وتراجع عائدا إلى عرشه وهو يقول لحاشيته :

obeikandi.com

- لا غرابة فهي من الهمج ..

وردّت عليه بشراسة لبؤة جريحة :

- الهمج هم الذين لا يحسنون معاملة الأسرى والسبايا .. أما من تسميهم الهمج من قومي ، فيمكن أن تسأل عن كيفية معاملتهم لزوجتك .. بل للتي كانت زوجتك وأخذها منك فرسان العرب .؟

نطقت الرباب جملتها الأخيرة هذه ، وهي تضغط على الكلمات في مخارجها ، تشفيا وإيلاما..ولم تكن تعرف أنّ الغيرة ليست من سمات الفرس،والناس عندهم قطعان تنزو فيها الذكور على الإناث ، بما يخلط الأنساب .. وقد فوجئت بالملك وهو يقهقه ، وقد توقعت غضبه .. فقالت :

- الآن صدّقتُ ما كان يلقبك به قومي ..

قال الملك :

- وما الذي يلقبني به قومك الأجلاف ؟

قالت :

- يلقبونك بابن عديدين..

قال الملك :

- وما معنى ذلك .. ؟

واقترب أحد أعيان المجلس ، فهمس للملك بشيء .. وقهقه الملك مرة أخرى وهو يقول :

- تقصدين أنني ابن رجال عديدين ..؟ ليقل قومك ما شاؤوا يا صافية النسب معلومة الوالد،والمهم عندي الآن ، أنّ قومك هؤلاء قد انتهوا وقد أخذوا رأيهم فيَ معهم إلى الجحيم..

قال ذلك ، وأشار بيده إلى رقبته ، إشارة للذبح،مُصدِرا بجانب فمه صوتا مصاحبا للإشارة.. وكادت الصبية السبية تنفجر باكية ، وقد استعادت صورة حيها إذ داهمه جنود الحقد

obeikandl.com

الفارسي، لكنها استجمعت رباطة جأشها ، نأيا عـن أن يراها الملك ضعيفة أو يتشفى بهوانها ،وقالت:

- ما أراك إلا وفرسان العرب يكادون يحيطون بك ، وقد اصفرّ وجهك وأيقنت بنهايتك ..

وارتعد الملك لـذلك ، ووقـف عـن مجلسـه ، يرغـي ويزبد ، يقول :

- ومن سيفعل ذلك بي ؟ التميمي ؟ وكيف سـيفعل ذلـك وأحيـاؤكم لا هـمّ لهـا سـوى الـدسّ والكيـد والخيانة والغدر فيما بينها ؟

obeikandl.com

obeikandl.com

الحلقة الرابعة والعشرون

المشهد الأول :

كان ليل وصديقه دخان من الذين انتقلوا إلى حيّ بني تميم بعد هجوم الفرس على حيّ هوازن .. وقد لقيا من الترحيب وإعجاب أهل حيّ بني تميم، ما خفف عنهما اغترابهما وأشعرهما بأنهما لم ينتقلا من هوازن ولم يغادراها ..والكلمة الجميلة خفيفة على القلوب آسرة للأنفس.. والناس في العادة ميالون لأصحاب النفوس المشرقة المرحة، لا العابسة المظلمة..

كان جميل في تلك الساعة من المساء جالسا أمام خيمته ، إذ وقف أمامه دخان وليل ، يستأذنانه في أن يبثا له من أمرهما شيئا .. وأذن لهما ، فجلسا ، وقال دخان :

- فكرتُ طويلا ، واستقرّ رأيي على أن لا أتخلّف عن واجب الأعيان وسادة القبائل ..

obeikandl.com

قال جميل وهو يصطنع الاهتمام والجدّ :

- وما ذاك يا شيخ دخان ؟

وطرب دخان للقب الشيخ ، ورمق صاحبه ليلا بنظرة جانبية لها معناها ، وأصلح عباءته على كتفه ، وهو يقول :

- إنما جئت لكي أعلن دخولي في حلف قتال فارس ، فهات سيف العرب أعاهدك على ذلك..

قال جميل :

- لكنّ الأمر معروض على شيوخ القبائل وسادة الأحياء وكبراء أقوامهم .. وقد ناب عنك في ذلك شيخ حيّ هوازن ، وأنت رجل من هوازن..

قال دخان :

- ألم تسمّني منذ لحظة الشيخَ دخان ؟ وما دخلي أنا بشيخ هوازن ، هو شيخ وأنا شيخ .. وله قبيلته التي يسودها، وأنا لي قبيلتي التي أسود ..

obeikandl.com

قال التميمي ، وقد استلطف هذا الرأي الغريب هزلا لا جدا :

- العبرة بمن يستطيع أن يكثّر سوادنا ، فأين هي قبيلتك التي ستكثّر بها سوادنا يا شيخ القبيلة ؟

قال دخان وهو يشير إلى صاحبه ليل :

- وهل هناك سواد أشدّ سوادا من هذا .. وسأسوّد به عيشتكم ..آ...أقصد.. سأكثّر به سوادكم..

وما كاد ليل يسمع كلام دخان حتى انتفض يقول:

- ما هذا الكلام ؟ أنا قبيلتك ؟ ألم نتفق قبل المجيء إلى هنا على أنّنا شيخا قبيلتين، وأنني سأمثّل قبيلتي في الحلف كما تمثل أنت قبيلتك ؟

قال دخان وهو يصفع ليلا على قفاه :

- اصمتي أيتها القبيلة وإلا جررتُكِ إلى الجزار..

وضحك التميمي ، وهو يقول :

- إذن سأخبر الشيخ حييّ بن عوف ، بخروجكما من قبيلته ، وبعدها سننظر في أمر انضمامكما للحلف ..

ونطّ الرجلان من مكانهما، يقولان :

- ألا تفرّق بين الجدّ والهزل يا رجل ؟ ولئن سمع الشيخ حيي بن عوف بذلك ، واستغنى عن رعينا لأغنامه ،فبماذا سنشتغل ؟

قال التميميّ مصطنعا الجدّ:

- اشتغلا شيخيْ قبيلتين ..

وما كاد ينهي قيلته تلك ، حتى كان الرجلان قد ولّيا هاربيْن ، وهما يمسكان ذيليْ ثوبيْهما بيديْهما ، وكلاهما يقول :

- انجُ..انجُ..

obeikandl.com

المشهد الثاني :

طارت خيول رسل بني تميم إلى قبائل العرب تقطع المفاوز والسباسب ، وشقّت الفيافي،مشرّقة ومغرّبة .. تبلّغ القبائل بأمر حلف العرب ، وتطلب ممن ارتضاه من شيوخ القبائل وكبراء الأحياء الالتحاق بحيّ بني تميم للدخول فيه وإنجازه ..

كانت حوافر تلك الخيول العربية الأصيلة ، تدقّ الرمال إعلانا بميلاد عصر عربيّ جديد ..

وما كادت أخبار تململ الصحراء تبلغ ثعلب بن مرّة ، شيخ حيّ بني واش، الخارج عن بني تميم ،حتى ارتعدت فرائصه ، وهو الذي يعرف جيّدا أنّ حليفه ملك الفرس لن يملك له نفعا ولا حماية،أمام هذه الأحياء المنتشرة في الصحراء حول حيّ بني واش..

ولم يكن ذلك شأن ثعلب بن مرة لوحده ..فقد وقع خبر حلف العرب على أشياع فارسَ من العرب

وقـــوع الطامـــة .. وطيّــر النـــوم مـــن عيـــونهم ..وتراسـلوا متوجسـين ، وقـرروا بعـد أخـذ وردّ أن ينتـدبوا ثعلـب بـن مـرة للسـفر إلـى بـلاد فـارس لإبلاغ الملك شيرْزاد بما تدبّره بنو تميم ومـا يعـدّ له حلفاؤها ..

وكمـا أنّ للشـرف خيـولا تقطـع الصـحراء وتتحمـل مشقة ذلـك طلبـا للعـزة ..فـإنّ للعـار خيولـه التـي تعرق في دروب الوشاية ومظاهرة الأعداء..

وبين ذيول من غبار العزّ تخلفها جياد وراءها وهي تسعى لاستعادة أمجاد الصـحراء العربيـة.. وذيـول غبـار أخـرى للهـوان تخلفهـا جيـاد باعـت ذممهـا لفـارس ، كانـت الصـحراء قـد قـررت أن تصـنع غـدها، وأن تحسـم أمرهـا ..إمـا اعتـزازا لا هـوان بعده ، وإما هوانا لا عزة بعده ..

كان ثعلب بن مرة على جواده ، قاطعا الوهاد والنجود، حاملا وشايته إلى ملك الفرس ، وفي صدره نار تتأجج ضد قومه ..يقول لنفسه :

- إنما الكدّ على قدر المأمول.. وأنا ساع في هلاك هذه القبائل هلاكا لا قيامة لها بعده..وما هي إلا مسيرة أيام حتى آتي الملك شيرْزاد وتبدأ نهاية العرب حين يعرف ما الذي تدبره له هذه القبائل ..ولا شكّ أنه سيجازيني على ذلك خير جزاء ..ولئن تطهرت الصحراء من بني تميم وغيرهم من قبائل العرب ، فإنّ هذه الصحراء كلها ستكون لي ..لي أنا ..حينها لن أكون شيخا ..بل ملكا .. ولن يمانع ملك الفرس في أن أكون ملكا للعرب ، حين يتأكد أنّ ولائي له ..

ثمّ ما يلبث الشيخ ثعلب بن مرة ، أن يتذكّر ابنته النجفاء التي أهداها لملك الفرس، واختطفتها

هوازن حين اعترضت موكبها...لتنقطع أخبارها بعد مهاجمة الفرس لحيّ هوازن..

لكنّه لا يهتم كثيرا لأمر ابنته النجفاء ، ليعود إلى نفسه يحدثها في سره :

- النجفاء لم تكن سوى وسيلة لكي يكون أبوها ذا حظوة عند ملك الفرس، وأبو نجفاء رجل ذكي،لا تكاد تغيب عنه وسيلة ، حتى يجد غيرها .. وقد غابت النجفاء وهاهي ذي وسيلة أخرى سأبلغ بها مرادي ، وأنال بها رضى الملك شيرْزاد.. ولا فرق بين ابنتي إذ أقدمها لأجل حصولي على رضى الملك ، وبين أن أسعى أياما لأخبره بما يحاك له خلف أكمات أحياء أعدائه من العرب..

obeikandl.com

المشهد الثالث :

دخل التميميّ خيمته ليلا متعبا ..وقد نال منه سعيه في أمر الحلف وقيامه في ذلك ما أوهنه وأضعف قوته..

وكانت راوند حينذاك تسامر البارعة في أمر الحلف، بينما كانت البارعة تقتّر عليها في الجواب،خيفة أن يكون سؤالها عن ذلك لأمر سيء تسره،كأن تفكّر في ركوب ريح الأحداث للهروب أو لإيصال الخبر إلى الفرس أو لغير ذلك ..

قال جميل ، وهو يستلقي على فراش من وبر،ويتأمل سقف الخيمة متوسدا ذراعه :

- لقد راعني اليوم أمر يا أمّاه ...

قالت البارعة :

- وما هو ؟

قال :

obeikandi.com

- ذاك الخاتم الذي أعطتني إياه تلك المرأة في رحلتي إلى ذي المجاز..

قالت البارعة :

- وما به خاتمك ذاك ؟

قال :

- ما كاد جدّي الحباب يتأمله بعد أن وضعته في يده اليوم ، حتى أجهش بالبكاء وتغيّر لونه..ورأيت من اهتمامه بعد ذلك طيلة مجلسنا ، ما رأيته من اهتمامك به ..

ووقفت البارعة ، تقول وفي صوتها نبرة جد واهتمام :

- وهل قال جدك شيئا ؟ هل أخبرك بشيء ؟

ولاحظ التميميّ ما اعترى أمه حينذاك ، فجلس من اضطجاع، ثم استقبلها يتفرس في وجهها،وهو يقول كمن شكّ في شيء :

obeikandi.com

- أهناك ما تخفينه عني بشأن هذا الخاتم أيتها البارعة ؟

قالت مرتبكة تعالج اضطرابها ، وتحاول تصنّع الهدوء، بينما يفضحها تسارع كلماتها :

- لا ..لا..أبدا ..وما الذي سأخفيه عنك ؟ وما أدراني أنا بما يعنيه هذا الخاتم ؟

وخرجت راوند عن صمتها ، وقالت بصوت هادئ :

- ربما عليك أن تخبريه ..

وانتفض التميمي واقفا ، يقول مستغربا ، وقد أدرك أنّ أمه تخفي عنه أمرا ما :

- لا بدّ أن تخبرني ؟ بمَاذا ؟

وأشاحت راوند في حنق ولم تجب..ليأتي صوت البارعة عميقا حزينا ، كأنما تخرجه من بئر عميق ،أو جرح قديم غائر، أو تستله من ذكرى بعيدة ..:

obeikandi.com

- هــذا الخــاتم كــان لوالــدك البــارق بــن الحباب،أعرفه جيدا .. وكنت أنا من نقش على فصه ذلك الرمز..

قال التميمي :

- كيف غاب عني أن أخمّن ذلك بعد كل الذي رأيته من احتفائك بذلك الخاتم وولعك به،وتأملك له آناء الليل وأطراف النهار؟

ثم أضاف يقول ، وهو يدور في الخيمة ويضرب كفا بقبضة:

- لكن ما قصته ؟

قالت البارعة ، وهي تقاطع سؤاله ببكائها وقد أجهشت :

- لا علم لي بقصته ..خرج والدك لمعركة مع الفرس ، ولم يعد ، هذا كل ما أعرفه ..قال بعضهم لقد قتل ، وقال آخرون بل أُسر .. ثمّ

obeikandl.com

انقطعت أخباره .. وقد مرّ على ذلك سبع عشرة سنة أو يزيد ..

قال التميمي وقد ازداد توتره :

- أيمكن أن يكون أبي قد أعطى الخاتم لزوج تلك المرأة وهو يصارع الموت بعد أن أصيب في تلك المعركة ؟ ..لكنّ زوج تلك المرأة ليس من بني تميم ، وتلك كانت معركة بني تميم دون غيرهم .. وذلك يعني أنّ زوج تلك المرأة لم يكن في المعركة، ولا قابل والدي فيها ..وهذا يعني أنّه اجتمع بأبي في الأسر .. أيعقل أن يكون أبي أسيرا طول هذه السنوات ؟

قالت البارعة :

- ألستم ذاهبين لغزو الفرس ؟

ولم تنتظر من ابنها جوابا ،وزادت:

- إن كان والدك حيا فستجده ..

ouarkalai.com

وتدخلت راوند لتقول للبارعة، متحاشية الحديث للتميمي ، معرضة عنه :

- إلى شمالي مدينة الملك شيرْزاد، مسيرة نصف يوم ،مكان يسمّى (المحشر) .. يبدو ظاهرا قرية صغيرة ، لكنه يخفي تحت أرضه سجنا كبيرا ومخيفا للأسرى والسبايا العرب..وإن كان زوجك أيتها البارعة حيا فعلا ، فلن يكون في غير ذلك المكان الرهيب ..

واستمع التميمي إلى ما قالت راوند ، ثمّ قال لوالدته ، متحاشيا توجيه كلامه إلى الملكة مباشرة:

- ولماذا عليّ يا أماه أن أصدّق ملكة فارس فيما تخبرك به ..؟ وما الذي يدفعها إلى أن تخبرنا بذلك ؟

وحدجت الملكة راوند التميمي بنظرة شزراء جانبية ، ثم أشاحت عنه بحركة سريعة من رأسها،

معرضـة، فـي نـوع مـن الـدلال الحاقـد ، أو الحقـد المـدلّل .. ثـم قامـت تمشـي إلـى خـارج الخيمـة ، وتبعتها البارعة ، بينما بقي التميمي يذرع خيمته يضـرب أخماسـا بأسـداس ، وقـد تحركـت داخلـه زوبعة كبيرة طيّرت أوتاد عقله..

obeikandl.com

obeikandl.com

الحلقة الخامسة والعشرون

المشهد الأول :

كان مجلس الملك شيرْزاد يضجّ بالضحك في استهتار ، بينما قادتُه يحدثونه عما فعلوه بحيّ هوازن وما اقترفوه فيه من الفظائع ..

وما توقفت موجة الضحك والتعليقات تلك ، إلا حين دخل أحد الحجاب، واقترب من الملك،يهمس له بشيء ..

قال الملك وكأنه يستأنف حديث استهتاره :

- رجل أعربيّ يريد مقابلتي ..؟ ما أكثر ما سيأتون لمقابلتي بعد أن بلغهم من أمر هوازن ما بلغهم ..

وقهقهت الحاشية .. وقال الملك :

- فلتدخله عسانا نجد في كلامه أو هيئته ما يزيدنا مرحا وضحكا ..

obeikandl.com

وانصرف الحاجب ، ليعود بعد لحظات ومعه ثعلب بن مرة، الذي انحنى للملك وهو يقول :

- أنا ثعلب بن مرة يا مولاي ..

- ومن ثعلب بن مرة ؟ وهل يجب عليّ لكي أعرفك أن أعرف كل الثعالب المتشردة في صحرائكم ؟ من أنت أيها الرجل ؟

قال ثعلب :

- أنا والد نجفاء التي أرسلتَ في طلبها وسباها التميمي وهوازن ..

قال الملك :

- أنا أعرف ابنتك .. أما أنت فأي حاجة لي بك لأعرفك ؟

ثم أضاف دون أن يبدي قطميرا من اهتمام:

- وما الذي سيزيد في مُلْك فارس أو ينقصُ منه ـ أن تكون ثعلبا أو ضبعا أو خنزيرا ؟

وضجّ المجلس بالضحك .. وقال الملك :

oudeikandu.com

- ما عرفنا الثعالب إلا ضابحة ، فما الذي جئتنا به من الضباح يا ثعلب ؟ اضبح لنرَ..

قال ثعلب وهو يحاول أن يمتص تلك الإهانات ببسمة خفيفة ، رافقتها نظرات وزعها يمنة ويسرة على أهل المجلس:

- إنهم يُعدّون لحربك يا مولاي ؟

قال الملك :

- يعدّون ؟ لحربي أنا ؟ ومن هؤلاء؟ الثعالب ؟

قال ثعلب بن مرة :

- قبائل العرب يا مولاي .. في حلف لبني تميم وهوازن وقبائل أخرى ..

قال الملك وهو يهبّ من مجلسه كالملسوع، وقد تغيّرت حاله وركبه قلق شديد ، أضاع طريق الضحك إليه :

- لعل أمرهم هذا ككل أمورهم السابقة ، مجرد رقصة ذبيح ، وجعجعة دون طحين؟

قال ثعلب :

- هذا التميمي ، جميل بن البارق ، يبدو جادا ومثيرا للمخاوف يا مولاي ، وهو الذي سبى زوجتكم الملكة..

قال الملك وقد ازدادت سَوْرة غضبه اشتعالا :

- التميمي ؟ لأجعلنه عبرة كما فعلت بكل الذين حاولوا أن يرفعوا رؤوسهم بينما أنا لا أحب منهم غير الطأطأة ..

ثمّ أشار إلى حراس هناك :

- خذوا هذا الثعلب إلى محشر الثعالب ..

وطفق ثعلب بن مرة يلتفت يمينا ويسارا ، لا يفهم مقصود الملك ، وقد كان ينتظر منه جائزة أو عطيةً..

وطار لبه فرَقا وحارسان يجرانه جرا عنيفا إلى الخارج ، بينما الملك يُتبعه قوله :

- من خان قومه وغدر بأهله ، لا يؤمَن جانبه ..

obeikandl.com

وعلت القهقهات ، بينما ضرب الملك بقبضته على ترس أحد حراسه في غضب ، وهو يقول:

- كفى.. كفى..

المشهد الثاني :

تنفست الصحراء أنفاسها المنعشة ، وظهرت أولى النجوم في السماء ، كأنها عيونٌ تسبق جيش النجوم العرمرم الذي سيغزو الظلام ..وتمهّد له قبل أن يبسط نفوذه على مملكة الليل .. وجلس التميميّ أمام خيمته ، يبري سهاما ، وهو يردّد :

يا ربة الحسنِ ،ساءت عندنا الحالُ

ألمْ ترَيْ ما شيوخ الحبّ قد قالوا ؟

قالوا الرموش سهامٌ لا تُروسَ لها

والكحلُ فوق عيون الحورِ قتّالُ

ومَن ببالي - هداها اللّه- جالسةٌ

تبري لحربي سهامَ اللحظِ ..تحتالُ

obeikandi.com

وخرجت المرأتان ، وقد سمعتا من شعره ما أخرجهما إليه من خيمته في تلك الساعة ..والشعر نار تجلب النساء الفراشات ..

وانتبه جميل إليهما فقال يحدّث والدته ويُسمع الأخرى :

- لعلّ أوان عودة ضيفتنا إلى بلادها وأهلها قد آن .. فزوّديها بما يُزوّد به مسافر إلى فارس ..فستكون معنا في مسيرنا إلى فارس..

قالت الفارسية ، تحدّث البارعة ، وتُسمع التميميّ:

- أيتها البارعة .. لستُ أمة يقرّر سيّدُها إلى أين تنتقل ومتى .. أنا ملكة أقرّر لنفسي بنفسي..ولئن كانت هذه الخيمة قد ضاقت دوني ، فسأتحوّل للعيش في خيمة شيخ الحيّ..فإن ضاقت خيمة الشيخ هي الأخرى،وضاق بي حيّ بني تميم الذي سيكون

obeikandl.com

عاره في أن يضيق بامرأة ، فسأنصب لي خيمة تصبح يوما ما حيّا بوفود قومي من بلاد الفرس.

قالت البارعة :

- وحينذاك ستسميك العرب الشيخة راوند ..

ثم أضافت:

- عجيب أمرك أيتها الملكة..لطالما رأيتك تستقبلين أرض قومك وقت الشروق أو وقت الغروب ، وفي عينيك شرود شوق أو دموع لوعة ..

قالت الملكة :

- أخبرتك أنني عربية ..وفي فارس يعيش قومي تحت رحمة الفرس ، ينتظرون اليوم الذي يتحررون فيه بانكسار شوكة فارس ، أو بخروجهم إلى أرض أخرى يجاهرون فيها بعروبتهم دون أن يمسهم بسبب ذلك سوء أو

obeikandl.com

عَنَتٌ.. ما نحن سوى أسرى ، لا يختلف أمرنا عما هو عليه أمر الأسرى العرب في محشر فارس ، ومنهم زوجك البارق إن كان حيا..

وتنهدت البارعة رافعة وجهها إلى السماء ، وقد سمعت اسم زوجها ، وتمتمت:

- يا ربّ المشارق والمغارب احفظه لابنه ..

وقالت الملكة في مكر :

- لابنه فقط ؟

وابتسمتا..بينما كانت النجوم تلتمع في عيون التميميّ وهو يتأملها ..

المشهد الثالث :

كانت راوند تتأمل جميلا من أمام الخيمة ، وهو في طرف الحيّ يستعرض صفوف الفرسان والمقاتلين ، ويشهدُ تدريباتهم..يتدخّل هنا في مبارزة بين اثنين ليعطي توجيها،ويأخذ هناك

obeikanal.com

القوس من ثان ليريه كيف تُمسك القوس،ويشرح ثالثا بين رماةِ رماحٍ كيفية استعمال الرمح..
بينما جده يماشيه في الميدان وبين الصفوف،مفتخرا به ، مبديا من علامات الإعجاب على وجهه ما يُظهر سروره ورضاه..
كان اليوم الموعود يقترب ، بعد أن دخلت الكثير من القبائل العربية في حلف العرب..وللحروب حين تأتي صوت يشبه صوت العاصفة ، تشعر به النفوس وتنقبض له القلوب وتحسه الخيل وفرسانها..
كانت الملكة راوند تطيل جيدَها وتميله يمينا ويسارا ،مشرئبة ، وهي تتابع التميميّ في الميدان، مبارزا ، وموجّها ، وراميا ، ومتترسا..
وكانت عيناها الجميلتان تمتلئان منه امتلاءً وتكتحلان اكتحالا ، رغم ما تبديه من الغرور والكبْر وعدم الاهتمام ..وكانت كثيرا ما تقارن

oboeikandi.com

بينه وبين ملك الفرس ، في نفسها ، وكان الملك عندها كثير الكلام والضحك ، عربيدا متهورا راعنا ..قليل الصبر ، يكدّره ذُبابُ وجهه،لا يحسن كبت نزواته ..ولا إخفاء قلقه..

بينما هذا الفتى ، بحر من الرهبة ، وصحراءٌ من الجَلَد والصبر والغموض ..يبتسم وهو في النار ، ويتكلّم بعينيه لغة فصيحة ، ويمزّق النساء بقصائده شاعرا ، كما يمزّق الأعداء بسيفه فارسا مقاتلا ..

ولو أنّ المعركة كانت مختصرة في التميمي وملك الفرس ، لجزمت راوند منذ الآن أنّ الغلبة ستكون فيها للتميمي .. لكنّ المعركة بين تاريخ من الهيمنة وتاريخ من الهوان ..وبين مملكة عاشت عقودا مرفرفة الرايات ،تعرف جيّدا ما تريد، وبين قبائل وأحياء عاشت عقودا متناحرة فيما

obeikandl.com

بينها،تأكل نفسها وتحرق يديها وتغسل أسوار مملكة فارس بدمائها وآلامها ، هديّة..

كان صوت التميمي يأتي ضعيفا وهو يقول للمقاتلين والفرسان في حزم:

- لطالما أخطأت سيوفكم ورماحكم وسهامكم طريقها ..فكانت ترجع إلى الخلف لتمزقكم أنتم بدل عدوها الحقيقي..ولطالما كانت الخيول الأصيلة تحرن تحتكم وتتراجع وتلعنكم، وأنتم توجهونها إلى غير معركة حقيقية..والآن الآن آن أوان الفصل..

لا يمكن لأمة أن تهزم عدوها ، ما لم تهزم فيها ما سلط عليها عدوها ..فلتهزموا فيكم غدركم بعضكم البعض ، واستحلالكم لبعضكم البعض .. وخوفكم من عدوكم ، وهوانكم وطأطأتكم أمامه ، واضطراب قلوبكم حين يُذكر.. وإن هانت عليكم أنفسكم ، ولم تفعلوا ذلك من

أجلكم،فافعلوه من أجل نسائكم ، وبناتكم ،و أخواتكم، اللائي لم يعدن ينظرن ّإليكم بإكبار وهنّ يعلَمْن أنهن مجرد محظيات لأبناء فارس في عهدتكم ، تسلمونهن لهم متى طلبوهنّ .. يا لعار الصحراء إن لم تغتسل من عارها ..يا لذل الصحراء إن لم تكسر قيودها .. يا لجنون الصحراء إن بقيت تأكل نفسها وتنهش كتفيها ويديها .. يا رجال بني تميم ، أنتم عماد خيمة العرب،وإني أنصبكم تحت خيمة الشَّعر الملقاة على الأرض عمودا يرفعها من جديد ، ولكم من الأوتاد والأعمدة في قبائل العرب وأحيائهم ، ما يشدّ أزركم ويقوّي كاهلكم ..وإني أخاطب فيكم سيوفا ظمأى .. وتروسا لم تردّ عنها سيوف الأعداء منذ سنوات طويلة..

ثمّ أنشأ يقول وقد أطرب وألهب :

بني تميمٍ.. قصدتُ الصِّيدَ والشُّرَفا

الواقفين لشيخ الحيّ إن وقفا

الراكبينَ سروجا لا لجامٍ لها

إذا تعمّمَ داعي الحرب والتحفا

الهازرين عباءاتٍ إذا انتُدِبوا

والضاربين صدور الفخر والكتفا

والرافعين أنوفا في غرورهمو

بالحق، للحق، لا كبْرا ولا صلفا

بني تميمٍ..ومثلي لا يُرَدّ إذا

أشار ، أو قال : (تمّ الأمرُ) أو حلفا

أنا جريركم الثاني .. وفي جسدي

جراحكم ، ما اشتفى منها وما نزفا

إن كان غيركمُ كلّ الحروف فقد

كنتمْ على الدهر في مَن دونكم ألِفا

وفي العواصف كنتم خير من وقفوا

إن طأطأ الغير نحو الأرض ، أو زحفا

بأيّ فضل وعزّ سوف يبلغكمْ

من إن رفعتمْ عيونا نحوه طرفا ؟

لو أبطأ الوحي بالإسلام كم سنةٍ

أكلتم الناس أكْلَ المُهر إن علفا

obeikandl.com

الحلقة السادسة والعشرون

المشهد الأول:

تحرّكت الصحراء العربية بعد هوان .. وزُلزلت زلزالها، وأخرجت أثقالها ..وصارت القبائل والأحياء لا تنام إلا على طَرْق الحدادين للسيوف ، ولا تستيقظ إلا على بري وترييش النساء والرجال والصبيان للسهام ..

وارتفع نقع الخيول حول الأحياء ، تدرّبا واستعدادا..

ولم تكن الفُرس في الجانب الآخر أقلّ اهتماما واستعدادا .. وقد هزتها أخبار حشود الأحياء واجتماع القبائل وازدياد أعداد المنتسبين إلى حلف العرب يوما بعد يوم ..وهالها ذلك ، وتوجست خيفة هي التي تعودت على الانتصارات الباردة ، والغنائم التي لا كدّ فيها سوى الوقيعة بين خصومها، وإرعاب بعضهم بالتنكيل ببعض..

obeikandl.com

مستفيدة من صراعاتهم وتشتتِ شملهم وتفرُّقِ صفوفهم ..

وبدا لملك الفرس أنّ الزمان قد استدار ، وأنّ خطوطا جديدة سترسمها الحرب في الصّحراء،وأنّ ممالك ستتسع وأخرى ستضيق وتنحسر.. وأن أقواما سيعزون وآخرين سيهونون ..

وأطلّ الملك من نافذة في قصره على المدينة،فرأى ما بها مما يدلّ على الاستعداد للحرب ، فهذا حدّاد يطرق سيفا .. ثمّ يتحوّل لطرق حدوة على حافر حصان يمسكه فارس .. وهذه امرأة تشتري كمية من الطعام وهي تقول لابنها : لنشتر ما يكفينا للحرب..

وترك الملك النافذة ، وتراجع إلى الخلف يفرقع أصابعه في توتر ، وهو يقول:

- ألا ترون ما الذي فعلته أخبار الحرب بالناس.. ؟

ouei kandil.com

- ثـمّ مشى ناحيـة ، وتقـدّم إلى بعـض أعيـان مملكته ، يتفرس وجوههم واحدا واحدا وهو يقول:

- فلتكـفّ عيوننـا فـي الصحراء عـن أن تصبّحنا وتمسّينا بأخبار حلفهم المشؤوم ، فإنّ ذلك يُضعف معنويات مقاتلينا ورجال الدولة عندنا ..

قال قائد الجيش :

- لكـن يـا مـولاي ، وضـعُنا أيـدينا علـى عيوننا،وامتناعنـا عـن رؤيـة مـا لا يعجبنـا ، لا يعني أنّ ما لا يعجبنا سينتهي ..لـذلك لا يجب علينـا أن نعتبـر مـا تسـوقه الركبـان ويحملـه جواسيسنا من أخبار ، إضعافا لنا ..

قال الملك :

- لكنّ هذه الأخبار قد فعلت فعلتها فـي المملكـة ، وزادت الإشاعات طينتَها بلّـة .. وأسـوأ مـا فـي

obeikandl.com

الأمر أنّ الناس يتحدثون عن أعداد للعرب تكاد تبلـغ أعـداد جيشـنا ..ثـمّ إنّ مـن المحتمـل أن تكون المعركة في أرضنا ، بعد أن كانت بعيدة عن كل حرب طيلة عقود طويلة .. وأنتم ترون أنّ شـعبنا لـم يتعـوّد أن تكـون الحـرب قريبـة منه..

قال أحد الوزراء ، وهو شيخ كبير، بيّضت السنوات شـعره ، وأحنـت ظهـره ، وأسـقطت حاجبيـه علـى عينيه:

- إذا أذن لي الملك ، سأقول شيئا ..

والتفت إليه الملك ، يقول :

- قل يا هرمز..

قال الشيخ :

- أرى يا مولاي أنّ عودة اشتعال رماد العرب ،أمر خطير ،والرأي أن نسالمهم ونصالحهم،ونرسل

إليهم من يبرمُ بيننا وبينهم اتفاقا على أن لا نغزوهم ولا يغزونا ..

قال الملكُ ثائرا :

- الظاهر أنّ الخَرَف قد أدركك يا هرمز ..أيّ هذيان هذا الذي تنطق به ؟ نصالح أجلاف الصحراء ورعاة الإبل ؟

ونكس هرمز رأسه ، بينما ضجّ المجلس بالضحكات.. والهمهمات..

قال الملك في حسم :

- لا خيار لنا إلا المعركة التي أريدها قاصمة لحلف هؤلاء ، وبعدها لن تقوم لهم قائمة أبدا.. لقد أخطأنا في ما مضى إذ قهرناهم،لكننا تركنا لهم فرصة للعيش الذليل .. والأحرى أن نبيدهم،وأن نأخذ أرضهم ، وأن نجعلها جزءًا من مملكة فارس ..لئلا تغرب الشمس عن مملكة فارس أبدا..

obeikandl.com

وردّد المجلس :

- المجد لفارس والخلود لأحفاد كسرى بن هرمز..

المشهد الثاني :

كان التميمي على جواده ، عائدا من طرف الحيّ،واستوقفه ليل ودخان ، ليقول ليلٌ يسأله :

- هل ستصحبنا أيها التميميّ إلى الحرب ؟ أم أنك ستخلّفنا مع الصبيان والنساء ؟

قال دخان ، وهو يصفع ليلا على قفاه :

- ألم نتفق على أن نستأذن التميمي في أن أذهب أنا للحرب وأن تبقى أنت هنا مع قنافذ الحيّ..

قال ليل مغاضبا :

- أبقى أنا هنا ؟ وماذا أفعل هنا ؟

قال دخان :

obeikandl.com

- وماذا تفعل في الحرب ؟ يتيمم عليك الجنـود ؟ مع العلم أنّ التيمّم على البعر لا يجوز ..

وهزّ التميمي رأسـه يمينـا وشـمالا مبتسـما ، وهـو يقول لدخان:

- عندك مركوب ؟

أجاب دخان:

- عندي حمار ...

قال ليل:

- حمـار ؟ يعنـي أن تنطلـق الآن لتسـبق الجـيش إلى المعركة ، أما إذا انطلقـت معنـا ، فسـننهي المعركة قبل أن تبلغ أنت منتصف الطريق ..

قال التميمي لدخان :

- وأنت يا ليل ، لك مركوب؟

قال ليل وهو يشير إلى دخان :

- عادة أستعمل هذا ..

قال التميمي :

obeikandi.com

- أميل إلى أن تبقيا هنا ، فسيكون الحي بحاجة إليكما ..

قال ليل :

- ولماذا لا يجب أن أذهب معكم ؟

قال دخان :

- لن تذهب لأني أعرف أين سيمرّغ الأسد الدابة..

ثم التفت إلى التميمي يقول له وهو يشير إلى ليل :

- إن أخذتم هذا القنفذ معكم ، فلن يرجع منكم أحد .. جده حضر إحدى معارك العرب القديمة مع الفرس ، فكانت الطامة.. ثمّ إنه جاسوس للفرس ، وسيشي بكم .. والرأي أن تقتلوه قبل أن ننطلق إلى عدونا..

كانت الملكة راوند تستمع إلى ما يدور من حوار بين التميمي وليل ودخان ، وتخفي بسمتها

obeikandi.com

مصطنعة الجدّ الذي ظلت تصرّ عليه في التعامل مع التميميّ..دلالا وكبْرا وغرورا ..

وقال ليل وهو يلتفت فيرى الملكة راوند :

- إذا كان كلّ الفرس لا يبتسمون مثل ملكتهم هذه، فالسلام على التميمي ومن اغترّ به من العرب..

ورمت الملكة ليلا بنظرة حادة ، وقال دخان وهو ينأى هاربا ، ويقول مهددا التميمي :

- اسمع يا تميمي ، إذا لم تصطحبني معك إلى الحرب ، فسأشيع في الحيّ أنّك واقع في هوى هذه الفارسية إلى ذقنك .. وأنّك ما قررتَ أن تحارب قومها إلا لأنها رفضت الزواج منك ..

قال التميمي ، وهو يضع سبابته على شفتيه ، مشيرا إلى دخان بالصمت ، وهو يلتفت يمينا وشمالا ليتأكد من أن لا أحد قد سمع ما قاله :

- سأصطحبك إلى الحرب ..

oudeikamal.com

قال ليل :

- وأنا ؟

قال جميل :

- وإذا لم ترافقنا هل ستقول فيَ ما سيقوله صاحبك ؟

قال ليل :

- وأكثر..

قال جميل :

- وما هو الأكثر من هذا ؟

قال ليل :

- سأخبرهم بما قلته لي ، حين طلبت مني أن أذهب إلى الملكة الفارسية لأخبرها بأنّ عيونها الجميلة لم تبق فيك ولم تذر..وطلبت أيضا أن أقرأ لها هذا البيت من الشعر :

يا ربة الحسنِ ،ساءت عندنا الحالُ

ألمْ ترَيْ ما شيوخ الحبّ قد قالوا ؟

obeikandl.com

وانتفضت الملكة واقفة كخيزرانة ، بقدّها الذي يعصف بالألباب ، ونظرتها الحاسمة ..بينما قال التميمي مرتبكا :

أنا طلبت منك ذلك ؟ ثمّ من أين أتيت بهذا البيت الذي هو لي فعلا .. ؟

قال ليل :

- هذه الأسئلة لم تعد تهمّ في شيء ..المهم هو : هل ستأخذنا إلى الحرب ؟

قال التميمي متحاشيا شرّهما :

- وهل أملك خيارا آخر ؟ سآخذكما ..

وقال ليل في تشكيك وهو يضيّق عينيه :

- هل ستأخذنا لتقتلنا وتتخلص منا ؟

وضحك التميمي ، ومشى نحو باب خيمته ، بينما كانت الملكة راوند واقفة أمام الخيمة غاضبة تشيح عنه وكأنها قد صدقت شيئا مما قاله ليل ..

obeikandl.com

المشهد الثالث :

كان أسيد بن الحباب يقوم ببعض شأن نياقه ، حين اقترب منه زوج ابنته بانة ، يقول :

- أردتك في حديث يا سداد ..

لكنّ سدادا أشاح عن الرجل مرارا ، إلى أن قال :

- أريد أن أعيد بانة إليّ .. وقد حدّثت جدّها الحباب بن عمرو بن يربوع، وما عنده في الأمر من مانع..

والتفت سداد إلى الرجل يقول :

- ألم تفارقها يا هذا ؟

قال الرجل :

- أنت أدرى يا سداد أنّ من النساء من لا تحلو في العين إلا حين تبتعد ...

قال سداد :

- ثم تعود لمرارتها حينما تقترب ..

قال الرجل :

obeikandl.com

- لا مرارة بعد اليوم يا ابن الحباب .. ولَهَجْرُ بانة أشد عليّ من ملاقاة جيش الفرس منفردا..

قال سداد :

- تبا لك من داهية ..كأنك تريد أن تخبرني من طرف خفيّ أننا سنكون بحاجة إليك في حربنا وأنت الفارس الكرّار ؟

وابتسم الرجلان في تصافٍ..

ولعلّ بانة قد وجدت في ابن عمها جميل ، ما ردمت به جرحها ، وربطت به على قلبها،بعد افتراقها عن زوجها،ومن النساء من تنسى رجلا برجل ،وتداوي جرحا بجرح ..

غير أنّ ابنة سداد ، ما كانت لتجد ما تطمئن به قلبها من ناحية جميل ، وهي تراه صامتا باردا غير منتبه لما كانت تلقيه إليه من النظرات والكلمات طوال أيام مضت ، حتى تقلبت بشأنه بين حالين ، حال اليأس ، إذ تسلو القلوب

obeikandl.com

بالجفاء،وحـال الهيـام ، إذ تــزداد نــار القلــب حــين تصادف متمنعا جافيا ..

ولأنّها انتظرت من ابن عمها ما يسرّ خاطرهـا مـن الكلام ، ولو بنظرة عين ، ولم تجد ، فقد استعادت ذكرى زوجها ، وعصـف بهـا الشـوق إليـه ، ولـو لـم يكن لها من الموانع خمسة أو ستة.. لأرسـلت إليـه تجدّد معه ما تصرّم من الود ، وما بلـيَ مـن حبالـه .. ولعل قلب زوجها أحـسّ بهـا ، أو لعلـه كـان أشـد منهـا توقـا إلـى اسـتعادة مـا كـان بينهمـا ، فجـاء يسعى إلى والدها يطلب رضاه ، وعودتها..

obeikandl.com

الحلقة السابعة والعشرون

المشهد الأول :

سالت الصحراء بأنهار من المقاتلين .. وعدّ العادّون ألوفا من الذين لبسوا للحرب لامتها،وشدوا على جباههم عمائم البأس ..وكانت بكر بن وائل حديث أهل القبائل ، إذ أعلنت رفضها للالتحاق بالحلف،مستحضرة ما كان بينها وبين بني تميم من عداوات وحروب..

ولم تكن بكر بن وائل من القبائل التي شايعت الفرس ، ولا من الأحياء التي لحقها عار ذلك ..غير أنّها حين رأت تصدّر بني تميم للحلف ، أحجمت .. وبين بني تميم وبكر بن وائل من المعارك والغارات والعلاقة المتوترة ، ما يجعل الغريم يرفض أن يكون تابعا لغريمه..ورغم ذلك فقد كان التميميّ يتمنى أن لا تتخلف بكر بن وائل عن شرف مواجهة الفرس في الصف الموحد للعرب ..

obeikandi.com

بيد أنّ تخلف هذه القبيلة عن الالتحاق بالحلف ،لم يفتّ من عضد بقية القبائل ، ولا أثّر فيها،وقد وجد أقوام كثيرون في هذا الحلف فرصة لمداواة جراحهم التاريخية ..كما كان بعض شيوخ القبائل قد تورطوا في مشايعة الفرس في لحظة ضعف أو طمع ، وهم اليوم يجدون في هذا الحلف فرصة للاغتسال من ذلك ، والبراءة منه..

وطوال عقود خلّف ظُلْمُ فارسَ للعرب وإهانتها لهم، الكثير من الندبات على القلوب وفي الذاكرة،لذلك كان شعور العرب قويا في أنّ أوان دفع الحساب قد أزف..وكان الاستعداد لهذه المعركة ، بقدر آلام الماضي ، وبقدر آمال المستقبل..

لقد اقترب اليوم الموعود ، وهي ذي جحافل المقاتلين وكواكب الفرسان ، تيمّم وجهها شطر حيّ بني تميم الذي تحوّلت أطراف واسعة حوله

إلى معسكرات للتدريب والاستعداد ..ودبّت في الناس نشوة وأعينهم تكتحل بكل هذه الأعداد التي تزداد كثرة في كل ساعة بالتحاق أبناء قبيلة جديدة ..

بينما تحرّك الأسف في قلوب كبار السن ، على السنوات الكثيرة التي ضاعت من أعمارهم ، دون أن يعيشوا مثل هذه اللحظة..

واجتهدت النساء في إعداد ما يلزم المقاتلين من طعام وزاد ..أما الصبيان الصغار ، فجروا بين خيام الحيّ وفي جنباته ، يحملون أعوادا يتبارزون بها،مأخوذين بما يرونه حولهم من أجواء الاستعداد للحرب..

كان المساء منعشا ،وفي المساء يزداد المعسكر حياة وحركة..واشرأبت الأعناق نحو التميميّ الذي صار في هذه الأيام حديث القبائل والفرس .. وتحركت الكثير من العيون في محاجرها، ترمقه

بعد أن سمعت عنه الكثير، وهي ذي اليوم تراه رأي العين..

وبخطى واثقة ، وبنظرة صقر، استعرض الفتى صفوف مقاتليه ، يوزّع المهام ، يوصي تارة،ويوجه أخرى، وينتدب ثالثةً..

وللنفوس حين يظهر فارس أسطوريّ ، توقٌ إمّا إلى قتله أو إلى اتِّباعه .. ولعل قبائل العرب قد أدركت بعد عقود من الهوان ، أنّ الواجب عليها أن تحمي بطلها لترمي به أعداءها ، لا أن تتآمر عليه وتقتله ، لتبقى في ظل العار والشنار والمذلة بعده..

وبينما كان التميميّ يتحرّك بين الصفوف كأسد رئبال ،كان الغبار يتطاير في الآفاق البعيدة المحيطة بالحي ، مؤذِنا بقدوم مدد جديد من هذه القبيلة أو ذاك الحيّ ..زرافات ووحدانا..

obeikandl.com

وحين كادت الشمس تميل نحو المغيب ..وقف الفتى جميل التميميّ ، يقول لمن تجمّع من الفرسان والمقاتلين الشجعان ، والوجهاء والأعيان:

((يا سباع العرب..ويا أُسد الصحراء .. حريٌّ بكم اليوم أن تستشعروا شرفكم في أن تعيشوا هذه اللحظة التي ستتحدث بها الدنيا قرونا وأحقابا،وستقتبس منها صبايا العرب أغانيَ يطرّبنَ بها في الحل والترحال ، وسيعيش أبناؤكم في ظلها الوارف أعزة رافعي أنوفهم ..

وبما في قلوبنا من مرارة ظلم فارس ، ومن كَيّات استهانتهم بشرفنا وعبثهم بأعراضنا ، فإننا لا نمضي إلى الفرس لنحاربهم، ولكن لنأكلهم..ولعلّ أنيابنا ومخالبنا ، ستفعل فيهم أكثر مما تفعله سيوفنا ورماحنا وسهامنا..وليس قليلا أن يرسل ملكٌ فارسيّ أعجميّ إلى عربيّ يطلب منه أن يرسل له نساءَه محظياتٍ.. ولعمري

إنّ ذلــك العــار ممــا لا يغســله إلا معركــة كــذي قار،تبقى حديث الصحراء قرونا وقرونا ..)).

ثـمّ اسـتدار التميمـيّ اسـتدارة عـزّ ، وقـال يشـعل جيشه :

أَحِدَّ ظُفركَ، واشحذْ نابكَ الآنا

فوقتُ أكْل جنود الفرس قد حانا

فاقبض بيمناك سيف النار في ثقةٍ

واذكُرْ مِن الفرسِ يا وحشيُّ ما كانا

أنا أُريدكَ برقا ، وقْعَ صاعقةٍ

هولا لعاصفةٍ ،نارينِ، طوفانا

أنا أريدك وحشا..ذاك يعجبني

ولا أريدكَ هذا اليوم إنسانا

أريدُ زُرقَ عفاريتٍ، بلا لُجُمٍ

لهذه الخيل،مرهوبينَ، فرسانا

وضجّ الوادي ..

obeikandl.com

المشهد الثاني :

كانت أخبار جيش العرب العرمرم قد فعلت في فارس فعلتها ، وهو ذا ملكها شيرْزاد يستعرض جنوده وهم يحصّنون القلاع ، وينتشرون على الحصون ، لحماية المدينة ..

ولعلّ الملك لم يحسّ بما تعنيه الحرب حقيقة إلا اليوم ، وقد كان معناها عنده السلب والإبادة والإذلال ..

أما اليوم فإنها تعني سيفا لسيف..وذلك ما لم يتعوّده جيش فارس ، وكان ذلك ما يزيد الملك توتّرا .. وقال لقائد جيشه ، بادنجَكي وعلامات التوتر بادية عليه :

- لعلنا لو أخذنا بنصيحة هرمز لكان أفضل لنا تحاشيا لما قد تجلبه الحرب من ويلات وتسفر عنه من مفاجآت..

obeikandi.com

وهـزّ قائـد الجـيش رأسـه موافقـا فـي تحسّـرٍ باد،وقال:

- لم يعد لنا من خيار غير الحرب يا مولاي ، وقـد بـذلنا وسـعنا للإيقـاع بـين قبائـل العـرب والتميمي ، فلم نفلح هذه المرة ، وقـد بـدا لـي أنّ العرب مصممون هذه المرة فعلا على تجاوز خلافاتهم وصراعاتهم وهذا ما يخيف ..

قال الملك:

- بل مـا يخيـف أكثـر هـو أننـا لسـنا نحـن الـذين نختار توقيت المعركة هذه المرة ، ولا مكانها .. ولم يحدث طوال نصف قرن أن حصّنت فـارس قلاعهـا وأبوابهـا وأسـوارها .. وأسـوأ المعـارك معركة لا تملك منها غير أن تـدخلها كمـا يـراد لك ، وليس كما تريد أنت..

كان الرجلان يشـقان الشـارع ، وسـط حراسـة مـن الجند ، والتفت الملك إلى امـرأة تحـث الخطـى مـع

books4arab.com

ابنها الصغير ، فاستوقفهما ، وأقعى ممسكا بالولد يسأله :

- هل أنت خائف من الحرب أيها الصغير ؟

قال الطفل :

- أنا خائف من التميمي ..

قال الملك وهو يفتعل الابتسام :

- التميمي ؟ لن يستطيع فعل شيء هذا التميمي..وفي الأخير لن يحدث إ لا ما أريده أنا..

قال الطفل:

- لكنه استطاع أن يسبي الملكة راوند رغم أنك لا تريد ذلك ..

وبحركة غاضبة ، دفع الملك الطفلَ عنه ، وقام وهو يقول لقائد الجيش :

obeikandl.com

- معنويات الناس منهارة .. تبا لهذا التميميّ،هل استطاع أن يفعل كل هذا في مملكتي حتى قبل الحرب ؟

ولم يعلق قائد الجيش ، فقط زمّ شفتيه وأغمض عينيه ، في أسف ..

وواصل الرجلان التقدّم في الشارع يرفعان معنويات الجيش والناس..

المشهد الثالث :

حين صاحت ديكة الحيّ ، واقترب الفجر من الآفاق البعيدة ، مثل شيخ أشيب الحاجبين ،يحمل بين يديه سيفا من الضوء .. كان التميميّ أمام خيمته،يعانق والدته التي تشبثت بثيابه وقد أزفت ساعة الرحيل ..وقد هزها في تلك اللحظة خاطرُ

obeikandl.com

أن لا يعود ابنها إليها من الحرب .. وغمغمت وهي تضمه وتشمه ، وتقول :

- أيها الصغير الذي كبُرَ في عيون الجميع ، بينما هو في عينيّ لا يزال طفلا صغيرا ..ارجعْ إليَّ..

- كانت ملكة فارس واقفة بالقرب ، تراقب المشهد متظاهرة بالتجلّد..

والتفت التميميّ جانبا إذ أفلتته أمه ..وفي نيته أن يلقي نظرة على الملكة ، أو ليأخذ منها نظرة ، فلعله لن يعود بعد هذا ليراها .. لكنّ المرأة وما إن أحسّت بالتفاتته حتى أشاحت بوجهها ، على عادتها في هذا الكبْر الذي تُعلي به أنفها..

وأدرك التميميّ ما بنفسها ، فقال لوالدته :

- سلمي لي على كل أحجار الحيّ ، ولو كان الأمر بيدي لودعتها حجرا حجرا ..

وأدركت الملكة أنّ الفتى يقصدها ..

كانت راوند في تلك اللحظة ريشة في مهب الريح، تتقاذفها أفكار كثيرة ، وعواطف متصارعة،وهمم متناقضة.. لكنّها كانت تصر على أن تلبس للموقف ما يلزمه ويليق بها هي من الثبات وإظهار اللامبالاة..

ومسحت البارعة عينيها وهي تشهق بالبكاء وتمدّ يدها نحو ابنها ، الذي ودّع والدته ، ثمّ استدار هاربا من لحظة الوداع ..

وما كاد التميميّ ينأى خطوات وهو آخذ بلجام جواده يقوده خلفه ،حتى لحقت به الملكة راوند تجري وهي تردد :

- يا هذا ..يا هذا ..

والتفت إليها في الظلام ، فمدّت إليه يدها بصرة صغيرة وهي تقول :

- لقد نسيتَ هذا .. وأنا لستُ حجرا ..

oubeikan.com

ولم تعطه فرصة لينظر إلى وجهها أو ليتأمّل عينيها اللتين كانت تهرّبهما منه لأيام طويلة..
وتزلزل قلب الفتى ، وأحسّ بقوة يمكنه أن يهزم بها عشرة جيوش كجيش فارس لوحده .. وابتلعه الظلام ، بينما يد والدته لا تزال تلوّح ، وعينها لا تزال تسيل..

oubeikandi.com

obeikandl.com

الحلقة الثامنة والعشرون

المشهد الأول :

كان ذيلُ السرحان قد انسحب من الآفاق ، متجاوزا الفجر الكاذب إلى الفجر الصادق.. حينها، لم تكن الصحراء قد كشفت عن وجهها برقع الليل بعد..وفي الغبش الذي تتداخل فيه حبات الضوء بحبات الظلام، كانت أصوات الجيش المتأهّب للمسير، تتعالى في طرف حيّ بني تميم ..وخرج كبار سنّ وأطفال ومخلّفون لأعذار أو لِحاجات،يودّعون هذا السيل الذي يكاد يتدفق في الرمال باتجاه بلاد فارس..

كانت الصفوف المتراصة للمقاتلين ، والتي لا يكاد الناظر يستبين تفاصيلها بسبب غبش الصبح ،توحي بالرهبة ..

obeikandl.com

فـــي خيمـــة كبيـــرة ، اصـــطف شـــيوخ الحـــي واقفين،يشـــــيّعون الجـــــيش ، ويعقـــــدون الألوية،ويديرون العمائم على رؤوس القادة ..

ورفرفـــــت فـــوق الصـــفوف رايـــات قبائـــل العرب،متجـاورة ، تصـنع مشـهدا واحـدا ، وتجسّـد قرارا واحدا ..وبـين تلـك الرايـات والبيـارق ، كانـت راية بني تميم بلونها الأحمر ..

وامتـدت يـد الشـيخ الحبـاب بـن عمـرو ، إلـى رأس حفيـده جميـل بـن البـارق التميمـي ، تـدير حولهـا كوْرات عمامة سوداء ..

كانت الخيول المصطفة تضبح في أعنّتهـا وتغلـي في لُجمهـا ، تـدافع مـا يمنعهـا مـن الانطـلاق فـي هذه الصحراء الواسعة..

وما كاد الشيخ الحباب ينهي تعميم حفيـده، قائـد الجيش ، حتـى امتـدت يـد شـيوخ القبائـل وأعيـان العرب ، مجتمعة ، تقدّم (سيف العرب) لجميل..

بحركـــــة ســـريعة ، جـــذب التميمـــــي ذيـــــل عمامته،ليرسله على كتفه الأيمـن ،متحنّكـا.. ومـدّ يديه يستلم السيف.. وضجّ المكان ضجة عظيمـة سرت في جسد الصحراء فاقشعرّ ..

كـان الموقـف المهيـب ، يسـتدعي الكثيـر مـن الدموع، ومن الفخر، ومن الندم على ما فـات من صراعات بين قبائل العرب ..

وبوثبة فارس ، اعتلى التميميّ جواده ، ثـمّ ، وفـي لحظــة حاســمة ، ســتكون فاصــلة بــين زمنــين عربيين ، رفع يده في ثبات ، ليشير إلـى الجيش بالتحرك..

وتحركـت القلـوب والمهـج ..تحركـت الـدموع فـي المآقي .. تحـرّك خوف النساء على آبائهن وأبنائهن وإخوانهن وأزواجهن الذاهبين إلى الحرب ..

كانت اللحظة لحظة بداية بامتياز ..ولحظـة نهايـة بامتيــاز .. لحظــة بدايــة لصــفحة جديــدة ، مــن

صفحات تاريخ صحراء العرب ، ولحظة نهاية،لأولئك الذين لن يعودوا ، وستكون هذه آخر وقفاتهم في الحيّ ..

على وقع حوافر الخيل ، وضبحها ، ووسط النقع الذي كشفه وجه الصبح وقد اتضحت ملامحه،تحرّك المارد العربيّ نحو مملكة الظلم والسواد، محمّلا بمرارة عقود من الظلم..تحرّك نحو مدينة أعشاش الغربان ..وفي قلوب مقاتليه وفرسانه ، الكثير من الكيات والندبات وذكريات الألم الفارسيّ ..

وحين يتحرك جيش للثأر ، أو لاستعادة شرف مهدور ، أو لغسل عار قديم ، فإنّ السيوف في أغمادها تلحس شفاهها في ظمإ ، طلبا للارتواء..

كان الصباح مميزا منذ أجيال ..يشبه صباح عيد،يغمره الانتشاء ، وترفرف فيه بالقلوب أجنحتها..

obeikandi.com

وارتفع صوت رخيم ، يهز القلوب ويزلزل العواطف ويشنّف الآذان ، يغنّي :

هزّي يمينكِ إنّ القوم قد ساروا
وأقفرت منهمُ – يا هذه - الدارُ
وأمسكي القلبَ باليسرى فقد عصفتْ
ريحُ الوداع ، وشبّت تحته النارُ
والقلبُ خيمةُ جلدٍ جِدّ مرهفةٍ
النار تحرقها ، والعصف طيّارُ
سلي الصَّبا عند ذِكرانا إذا خطرتْ
وقتَ المساء فقد تأتيكِ أخبارُ
وارمي بنا الفرسَ ، كالشاهينِ إن رُميتْ
به بغاثٌ له في حقّها ثارُ

كان الصوت الجميل يتهادى ليرتميَ بعيدا على تلك الآفاق التي استفاقت من نومها على وقع

obeikandi.com

حركة الجيش وهو يعبر ظلامه الطويل إلى الشمس..

المشهد الثاني :

ترامت أنباء جيش العرب إلى حيّ بني واش ، كما تترامى الحية ، وزاد من غمّ الحيّ سجنُ ملك الفرس لشيخه ثعلب بن مرة ، رغم كل اليد التي بسطها للفرس ، والهامة التي أحناها لأجلهم،والخدمة التي قدمها لهم ..

وقد أيقنَ القوم أنّ الدائرة قد دارت عليهم ..فلم يفوزوا في الأخير ، لا بعنب الشام ولا ببلح اليمن..وهذا ملك فارس قد تنكّر لهم ، وأهان شيخهم،وزجّ به في غياهب السجن امتهانا واستخفافا ، وهذه أحياء العرب ، قد نقشت غدرتهم في صخور جبالها ، وحدّثت صغارها عن عارهم، ليذكروه وليحذروه ..وكانوا كمن تعلّق

obeikandl.com

بين السماء والأرض ، فلا هو ارتقى ولا هو هوى .. وحين تتحوّل الأرض إلى نار ، ويستحيل على غراب أن يحطّ عليها ، مع استحالة أن يبقى طائرا طول عمره ، فإنّ الكون يصير في عين هذا الغراب بسعة سمّ خياط ..وبحجم نقرة على ثمرة..

وقد جلس أعيانهم في خيمتهم ، يتدارسون الأمور ويقلبونها ، ضاربين أخماسا بأسداس ..

قال شيخ مسنّ من شيوخ بني واش، اسمه كليب بن المعلّى :

- يا لعارنا ..ويا لشنارنا.. ويا لشؤم ما ينتظرنا إن لم تنتصر فارس..

قال جروان بن ثعلب ، وقد خلف والده في مشيخة الحيّ بعد غيابه :

obeikandi.com

- ليس الوقت وقت بكاء نسوان يا كليب بن المعلّى .. وما اجتمعنا هنا إلا لنرى ما يجب فعله ..

وردّ عليه أحدهم :

- وما الذي تملك فعله اللقمة وهي بين فكين ؟ تبا لثعلب بن مرة وقد أوردنا هذه الموارد المشينة ..تبا له من غراب نحس وشيخ سوء ..

وهبّ جروان بن ثعلب واقفا يستلّ سيفه ، يقول :

- بل تبا لك أنت ..كيف تتجرأ على أن تقول عن شيخ الحيّ ما قلته ؟

وردّ الرجل وهو يمدّ يده إلى سيفه يستله هو أيضا :

- شيخ الحي ؟ أيّ حيّ وأي شيخ يا هذا ؟ أيّ حيّ هذا الذي يبيع جلد وجهه للفرس ليصنعوا به نعالهم .. ويهدي نساءه لرجال فارس محظيات؟ وأي شيخ هذا الذي يزيّن ابنته

ويكحّل عينيها ويخضب جسدها بالحناء ، ثمّ يرسلها إلى ملك فارس ؟

وتهامس الناس في المجلس وهمهموا ، وارتبك جروان بن ثعلب ، وخانته الكلمات ، وتلعثم وهو يقول :

- الآن تقول هذا ، بعد أن ولغتَ فيما ولغنا فيه ؟ الآنَ تتحدث عن الشرف، وأنت الذي قُتِلَ والدك بسيوف بني تميم بعد أن وجدوه يتجسس على حيهم عينا للفرس.. ؟

وهبّ كليب بن المعلّى ، يقول وقد بدا عليه ثقل السنوات :

- يكفي هذا ..فما منا أحد إلا وانغمس في هذا الأمر إلى ذقنه .. ولا فضل لواحد منا على الآخر..

وصمت المتحدثون والمتهامسون ، قبل أن يقول جروان :

obeikandl.com

- أراكم تتحدثون وكأنّ هزيمة قد نزلت بفارس فعلا .. وكأنّ جيش العرب قد قفل راجعا من مدينة فارس مرفرف الرايات منتصرا ؟ ما هذه إلا هواجسكم تستبقون بها حربا لي ثقة أنّ دائرتها ستدور على التميمي ومن معه ..

قال كليب بن المعلّى :

- حتى إذا انتصرت فارس ، فلا شيء سيكون لنا من ذلك ، وشيخ حيّنا في سجون فارس التي قلبت لنا فارس ظهر المجنّ ..وسواء انتصر التميميّ أم شيرْزاد ، فإنّ أحلى أمرَيْنا مُرّ ..

كانت الريح تعوي وتعول بين خيام حيّ بني واش،تهزّ الخيام ، وتدفع الماشيات من النساء في حاجاتهنّ ..بينما الغبار يذري حباته على الوجوه،كأنما يلطمها متشفيا فيها، أو يصفعها في لوم وتعيير..

المشهد الثالث :

مساءً ،نـزل جـيش التميمـيّ للراحـة ، بعـد أن سـار عنقا فسـيحا ..وحيّـت الصـحراء مقاتليهـا بنسـمات نفختها من شفتيها على وجـوههم ، كأنمـا تجفـف عنها عرقها أو تنفخ عنها غبارها ..

واستدار رجلٌ يرمي بصره إلى غبار واسـع بعيـد .. واستدار رجل آخر ، فرجلان آخران ، فمائة.. وأشـار النـاس بأصابعهم .. واشرأبّت الأعنـاق .. وجـاء مـن يهمس للتميميّ في أذنه ، وهو منهمك في بعض شؤونه مع بعض قادته ..

وقـام يسـتجلي الأمـر ، يطيـل جِيـده نحـو الغبـار البعيد ..

والصحراء جالبة خير وسـوء ، وقـد ينحسـر غبارهـا عن خلّ وحبيب ، وقد ينقشع عن عدوّ ..غير أنّه مـا كان ليصيب الجيش شـيء مـن الهـواجس ، لقوتـه وكثرة عدده..

وقد مال بعضهم إلى أنّ فارس قد دبـرت للجـيش من يهاجمه من الخلف ، من الفرس أو مـن الأحيـاء الباقية على ولائها ومشايعتها لفارس..

وتـحركت فرقة من الجيش ،نحو الغبار .. ومـا هـي إلا لحظـات ، حتـى عـاد فـارس يحمـل البشـرى ويقول:

- إنها بكر بن وائل ..

وقال التميميّ مبتسما :

- ومـا كـان لبكـر بـن وائـل أن تتخلـف عـن هـذا العـزّ،وأن تمتنـع عـن موقعـة ستترصـع فيهـا عمائم قبائل العرب الوفية بالنجوم ..

والتقـى الجمعـان ، جمـع الجـيش ، وجمـع بكـر بـن وائـل ..واشـتدّ العنـاق ، وابتهجـت النفـوس..وقـال جديلة بن نزار،شيخ بكر بـن وائـل للتميمـي وهـو يمدّ يده إلى مقبض سيف العرب ، معاهـدا، داخـلا في حلفه :

- بنو شيبان الذين أشعلوا ذي قار كانوا بطنا من بطون بكر بن وائل .. وما كان لبكر بن وائل أن تتخلف عن هذا العز ، ولو كان فيه إبادتها عن بكرة أبيها .. فليس العز النصر ، بل هو شرف الحرب ، ومجد ضرب السيف بالسيف ..ومن شاعرنا طرفة بن العبد إلى اليوم، يموت عظماؤنا صغارا .. ولا ضير على من مات صغيرا إن مات في طريق عزّ.. وإنا معك بقلوبنا قبل سيوفنا .. وما عادينا قومك بني تميم إلا لأنهم حاربونا ،أما وإنهم اليوم يحاربون فارس ، فهم إخوتنا نحمي صدورهم قبل ظهورهم ..

وشدّ التميميّ على منكب الشيخ جديلة بن نزار،وهو يقول :

- لا يخطئ المجد أهله ، ولو وقعت كَسرة من قرن الهلال لما وقعت على غير بكر بن وائل ..فأنعم بهم وأكرمْ..

وكان الليل ، يرخي على المعسكر سدوله ، بينما يرتفع عواء ذئاب من بعض الأكمات المحيطة به..

obeikandl.com

الحلقة التاسعة والعشرون

المشهد الأوّل :

لـم يكـن هنـاك مـن بـدّ مـن أن تجـري المعركـة الحاسمة حول أسـوار مدينـة فـارس ، إذ آثـر ملِـكُ الفُـرس وقـادة جيشـه ، أن لا يلاقـوا جـيش العـرب في العراء ، لأسباب ، منها أنّ معركة العـراء تحـرم الفُرس من التتـرّس بحصـونهم وقلاعهـم وأسـوار مـدينتهم ، فـي مواجهـة جـيش سـيكون مكشـوفا بالمقابل.

وقـد أدرك التميمـيّ مـا ترمـي إليـه فـارس ، ورأى ذلـك عيانـا حينمـا اقتـرب ورأى الأعـداد الكبيـرة للرماة على الأسوار والحصون ..

في غبـاره وجلجلتـه ، اقتـرب الجـيش العربـيّ مـن مدينة الفـرس ، وأطـلّ الملـك شـيرْزاد مـن إحـدى نوافذ قصره المحصّـن ، يلقـي نظـرة علـى هـؤلاء

obeikandi.com

الذين حضروا اليوم للاقتصاص منه ، بعد قرون طويلة من إذلالهم..

وقال أحد وزرائه وهو يشير بيده إلى جيش العرب الذي يتقدّم نحو المدينة :

- تبا لهذا التميميّ ، ما كان هؤلاء ليصْحوا من سكرتهم وهوانهم لولا وجوده ..من أين جاء هذا ؟

قال الملك :

- ليس الأمر كذلك ، فالأفراد لا يحررون أمما وشعوبا .. ولا يوجد بطل يحرر أمة ، هناك فقط بطل يقود أمة تريد هي نفسها أن تتحرر.. وأعظم ما فعله هذا التميمي ، هو أنه أقنع هؤلاء بالحرية ..لكنّ مشكلة هؤلاء أنهم ينطلقون من أوهامهم البدوية والقبلية الساذجة ، وهم لا يعرفون معنى أن تقاتل دولة ، بكل ما تعنيه الكلمة .. وحين تفتك بهم

obeikandl.com

سـهام الرمـاة ورمـاحهم ، وتـناوشـهم سـيوف الفرسان مـن كـل جانـب ، سـيدركون سـوء مـا أقدموا عليه..

قال الملك شيرْزاد ذلـك ، لكـنّ قلبـه كـان يرتجـف كغصـن فـي العاصـفة..ولمعـت عينـاه وهـو يـرى جيشا يفوق عدده عدد جيشه ، يقترب من أسـواره ..وكـان ظنـه أنّ أعـداءه لـن يسـتطيعوا يومـا أن يجمعوا مثل هذا العدد..

كان رماة الفرس يعلمون رغم مواقعهم المحصنة ، أنّ المعركـة سـتكون حاسـمة ، ولـم يكونـوا فـي ذلك مختلفين عن جنود التميميّ الذين كانوا هـم أيضـا يضـمرون الحسـم ، إذ لـيس مـن الحـزم أن يقطـع جـيشٌ مسـيرةَ أيـام وليـالٍ ، فقـط ليـنـاوش عدوه ..

أما التميمي، فكان يراها فرصة قـد لا تتكـرر ، وأنّ الواجبَ الإجهاز على العدوّ..

oberkanali.com

وتوقف الجيش ، قبالة واجهة المدينة وأبوابها الرئيسية ، وخفقت القلوب ، واهتزّت الصدور،وطارت الأفكار بالعقول .. وترقرقت الدماء الحارة في عروق الخيل ، وجنّ جنونها وهزت رؤوسها تغالب لُجُمَها..

ووقف التميمي ، يزأر ويقول وهو ينظر إلى أعالي الأسوار والحصون :

- يا أبناء فارس وجنود الظلم ..هذه ساعة الحساب .. ما جئنا بهذه السيوف إلا لننتزع أرواحكم ، تطهيرا للأرض من رجسكم .. وأسوأ ما ستؤتون من قبله ، هو أنكم لم تعرفوا يوما مذاق السيوف العربية ، لأنها ما حاربتكم يوما ..لكنها اليوم ستفاجئكم بمرارتها وحرارتها .. ومن يسمعني الآن سيكون في عداد الموتى هذا المساء ..

obeikandl.com

- وفعلت تلك الكلمات في جنود فارس فعلتها ، وزلزلت قادتهم زلزالا عظيما ..

وما كاد التميمي يعطي الأمر لجنوده ببداية المعركة ، حتى أمطرهم جنود فارس من علٍ بوابل بعد وابل ، وفُوّقَت تروس العرب تمنعهم من سهام أعدائهم ..واندفع صفّ منهم فالتصق بأسوار المدينة ، محتميا من سهام الأعداء..محاولا فتح ثغرات فيها .. وجدّ الجدّ..

وما هي إلا ساعة ، حتى أدرك الفُرس ضعف خطتهم ، فأرسل ملكهم رسولا يقترح على العرب الهدنة والصلح ..

ورفض التميميّ عرض فارس ، وهو يقول :

- ما قبِل اللّه توبة فرعون إذ ألجمه الماء ..وإني لأرى الماء قد بلغ حقويْ مملكة فارس ، وكاد يغرقها..

قال الرسول للتميمي :

- لكن لا ماء حول مدينتنا ..

قال التميمي :

- إذن ستغرق في دمائها ..

وطار قلبُ الملك حين سمع من رسوله ما قاله التميميّ ، وتأكّد أنه الحسم ، وأنّ نهاية أحد طرَفَيْ الحرب وشيكة..

اشتدّ رجال التميميّ اشتداد الصخور حين تهوي من أعالي الجبال،وأبدوا من أنفسهم شجاعة روّعت جنود فارس،وفتحوا في أسوار المدينة ثغرات سالوا منها إلى الداخل أنهارا .. وارتفع صليل السيوف ، وتزلزلت المدينة وعمّتها الفوضى ، وخالطها الموت ، وسالت فيها الدماء بما يُسترخص في معركة تنصف مظلومين من ظالميهم..وكان مما أوصى به التميمي جنوده، أن لا يطبقوا الحصار على أعدائهم ، وأن يتركوا لهم

obeikandl.com

ثغرة للفرار ، وكانت تلك الثغرة مفرّا للكثير من جنود فارس ، ممن آثروا السلامة..

ولم تكد الشمس تغرب ، إلا وشمس فارس تغرب معها ، وقد اعتلى التميميّ قلعة من قلاع المدينة ، ليرفع راية النصر ، وليهزّ التكبير أرجاء المدينة .. كان الموقف شديدا على الفرس وهم يلبسون هذه الهزيمة لباسا، ويتجرعون مرارتها شرابا.. بينما كانت عيون العرب تغرق في الدموع ، فرحا بنصر لم يكونوا يؤمّلونه ولو في أحلامهم..وتعانق الكثير من أبناء القبائل ممن كانوا بالأمس أعداءً يغير بعضهم على بعض،ويقطع بعضهم طريق بعض ..

وصرخ التميميّ يقول :

- أحسنوا معاملة النساء والأطفال وكبار السن والمرضى، ولا تكونوا كالفرس في أخلاقهم حين يداهمون حيا من أحيائنا.. فإنّ الظلم مآله إلى

وبال ، وأنتم اليوم ترون ما حلّ بفارس بعد طول ظلم .. فأحسنوا لتدوموا..

لم تكن المعركة قد انتهت .. فهناك أشياء يستدعيها سقوط المدن الظالمة .. وتحرّكَ التميميّ في كوكبة من جنوده، وحين كان يهمّ بمغادرة المدينة نحو وجهة يعرفها ، وكانت الملكة راوند قد وصفتها له ، اعترض طريقه بعض جنوده وهم يقودون رجلا تبدو عليه علامات العزّ، بينما أحدهم يقول :

- أيها التميميّ ، هذا ملك الفرس ، الملك شيرْزاد قد ظفرنا به ، وكان يهمّ بمغادرة المدينة..

ورمى الملكُ التميميَّ بنظرة حادة حاقدة ، وزأر كاشفا عن أسنانه ..فردّ عليه التميمي ، وهو يتجاوزه بجواده :

obeikandl.com

- ما كنتُ لأهتمّ لزئيرك وأنت طليق ، فهل سأهتمّ له وأنت كالظبية بين مخالب الوحوش المفترسة ؟

وانطلقت كوكبة الفرسان ..تفاجئ الليل وتستبق الظلام ..

المشهد الثاني :

كان بعض جلاوزة فارس ، يغيظون الرباب من خلف القضبان ، بأنّ قومها سينهزمون في المعركة ، وأنّ الفرس سينتقمون منها ومن غيرها من السجناء بعد ذلك شرّ انتقام ..

وكانت المسكينة ، تحتضن ذراعيها تقضم أظافرها، منزوية في زنزانتها..وقد لبسها الهلع،وسكنَها الخوف ..

ولم يكن جناح النساء في محشر فارس، حيث تتواجد الرباب بنت حييّ ، مختلفا عن جناح

oubeikan.com

الرجال..وما كانت قسوة الفرس وهمجيتهم لترقّ للنساء أو تحترم رقّتهنّ، فتجعلهنّ أقل عذابا من الرجال ..

واهتزّ المحشر بصراخ عال للزبرقان ، بلغ جناح النساء، وكان يقول :

- لن أصدّق أنّ مملكة قائمة على الظلم ستقف في وجه جيش جاءها طالبا للثأر..وإني لأشعر بوقع حوافر خيولنا العربية وهي تقترب..فيا أبناء وبنات الصحراء ، ما هي إلا لحظات وتنعم عيونكم برؤية السماء بشمسها إن كنا نهارا،وبنجومها إن كنا ليلا ..

ولم يكن السجناء في هذا المحشر يعرفون نهارا من ليل ..

وما كاد الزبرقان يقول ذلك ، حتى دخل الحراس زنزانته ، وانهالوا عليه ضربا..وهو يصرخ:

الظلـم خـراب يـا جنـود دولـة الظلـم.. سـقطت فارس..سقطت فارس.

وتسري كلمات الزبرقـان فـي المحشـر كالـدم فـي الجسـد ، فتنفـتح الشـفاه التـي نسـيت الكـلام لسـنوات ، وتتحـرك ملامـح الوجـوه التـي فقـدت ملامحها لأعوام .. ويرتفع الهمس الذي سرعان ما يتحـوّل إلـى رعـود، متناغمـا مـع دقّ السـجناء والسجينات على قضبان زنزاناتهم :

- سقطت فارس..سقطت فارس..

وحاولت الرباب الوقوف مستندة إلى الجدار ، مثـل نبتة للظـلام رأت النـور فجـأة فتسلقت، وتحركـت شفاهها تهمس:

- سقطت فارس..سقطت فارس...

وتأهّـب الحـراس للانقضـاض علـى هـذه الأشـباح النحيلة المتعبة .. غيـر أنّ جلبـة اقتربـت مـن بـاب القبـو ، أوقفـت أنفـاس الجميـع .. واهتـزّ

الباب..وحُبست الأنفاس .. وتبادل الحراس نظرات غريبة ، فيها الكثير من التساؤل والخوف .. ومع ازدياد اهتزاز باب المحشر أمام الذين يحاولون فتحه من الخارج ، كان الزبرقان يصرخ :

- هاقد جاؤوا ..ها قد جاؤوا ..

واهتز المحشر ثانية بأصوات السجناء يرددون خلف الزبرقان :

- هاقد جاؤوا ..

وما هي إلا لحظات ، حتى هجم السيل العربيّ المحمّل بثارات عقود ، على أروقة المحشر وأقبيته، يُعملون في حراسه السيف..

ولم يكن التميميّ ليتجاوز الرباب وقد عرفها..واقترب يفتح عليها باب الزنزانة ، وقد رقّ لحالها ، ووقف مشدوها جامدا وهو يرى ما حلّ بها ، وبغيرها من السجينات ..

obeikandl.com

وحاول أن يقول شيئا ، لكنه لم يجد كلمة تليق بموقف يستدعي السكوت .. وفتح باب زنزانتها، وانطلق من كنّ معها من السجينات إلى خارج الزنزانة ، يلهجن بالدعاء والحمد، يتعانقن تارة،ويسجدن شكرا تارة أخرى ، ويلتفتن إلى التميمي يشكرنه ، ثالثة..

ولعلّ حسناء هوازن ، قد استعادت في تلك اللحظة ، كبْرها وغرورها ،فنظرت إلى التميميّ نظرة شزراء ، ثم أدارت عنه وجهها ، وعادت إلى الزاوية ، وهي ترفض الخروج ...

وقال التميميّ وهو يتصنّع الجدّ :

- إن كنت تفكرين في البقاء ، يمكنك أن تبقي ..أما نحن فسننصرف قبل أن يداهمنا هنا جنود فارس .. وهمّ بإغلاق باب الزنزانة ..

obeikandi.com

وكان الأمر كما قدّر فعلا .. فقد اندفعت الرباب نحو باب الزنزانة تدفعه، وهي تقول في تأنيب وحنق، قبل أن تشق طريقها في الرواق :

- ألم يكْفِكم أنكم تركتمونا هنا كل هذه المدة..؟ تبا لكم من مقاتلين ..

وابتسم التميمي ، وسمعته وهو يقول :

- من قال إن طباع الجميلات تتغيّر؟..

المشهد الثالث :

كان بعض جنود ومرافقي التميميّ قد سبقوه إلى جناح الرجال في المحشر..لذلك ، حين دخله وجد زنازينه مفتوحة ، وفيه من الدموع والعناق ما يشقق جدرانه الصخرية..

ولولا أنّ واجبه قد حتّم عليه أن يدخل السرور على النساء بتحريرهنّ قبل الرجال ، لكان قلبه قد طار به إلى هذا الجناح مذ وصل إلى المحشر..

ومشــــى بـــين تلـــك الوجـــوه المتعبـــة يستعرضها..يبحث في ملامحها عـن رجـل يشـبهه أو يشبه جدّه وأعمامـه .. لكـن ..لـم يكـن قـد بقـي في تلك الوجوه ما يدلّ على أصحابها ..

وحـين أعيتـه الحيلـة ، وفشـل فـي تفرسـه، صـاح بأعلى صوته :

- أليس فيكم من تمـيم رجـل اسـمه البـارق بـن الحباب ؟

كانـــت الهياكـــل التـــي دبـــت فيهـــا الحيـــاة منـــذ ساعة،أضـعف مـن أن تجيبـه علـى سـؤاله .. ومـن السجناء هنا من لـم يعـد يـذكر مـن ماضـيه ومـن اسمه وقومه شيئا .. ومنهم من يبس لسانه ،ولـم يعد ينطق بكلمة .. ومنهم مـن فقَـدَ عقلـه لطـول الحبس وشدة العذاب..

واقترب الزبرقـان مـن التميمـيّ وعلـى وجهـه خـدوش وكدمات وآثار ضرب ، يقول :

- كأنني أعرف شخصا ، قد يكون من تطلب ..

وتشبث به التميميّ ، يقول :

- أين هو ؟ دلني عليه ..

ومشى الزبرقان ممسكا بالجدار ، يبحث بين وجوه السجناء ، يتبعه التميمي في لهفة ..

وتوقف فجأة ، يشير إلى أحدهم ، يقول:

- هذا ..هذا هو ..

وتوقف التميميّ كشجرة احترقت فجأة في خاطف من صاعقة ، وأحسّ برأسه يغزوه الشيب، وبقلبه يشيخ .. ولم تسعفه الدموع ليخرج ما في جوفه من الحزن والانكسار ...

تأمّل الفتى وجه والده ..واستطاع بعد لأْي أن يعثر فيه على بعض ما يشبه ملامح عمه سداد وجدّه الحباب..

واندفع إليه ، يعانقه وهو يجهش بالبكاء..بينما وقف البارق متهالكا ، بهيكله الضعيف ، غير آبهٍ

obeikandl.com

بشيء..رغم أنّ ابنه جميلا أحسّ بيد والده وهي تمسح شعره من الخلف .. وقال بعد ذلك إنه أيضا رأى دمعة غريبة تتحدّر من عينه ..

وليس يسيرا أن يقف ولد هذا الموقف ، قبالة جسد جففته الحياة ، فلم يعد فيه منها شيء غير أنفاس تعلو بصدر بدت أضلاعه ، وتنزل ..

ودارت عينا جميل في المكان تتأمل فظاعته،منظر الدماء والأوساخ على الجدران،والفئران المتلصصة من جحور في زواياه،وروائح العفن التي تزكم الأنوف فيه..وزنازينه المقرورة الموحشة..

حينما حمل التميميّ والده بين يديه كطفل صغير، وشقّ به الرواق نحو الباب الخارجي ، كانت هذه الهياكل تستقبل عالما لم يبق منه في ذاكرتها غير القليل .. لذلك تقلبت وجوه السجناء في السماء تتأمل النجوم ، وجلس بعضهم على

openkanal.com

مخرج المحشر يملأ صدره من نسيم الليل بعد سنوات من العيش في قبر لا رحمة فيه ..

كانت أجزاء من مدينة فارس حينذاك تشتعل ،وقد تعلقت أعين السجناء بتلك الأنوار وهم على الجياد ، يتحركون نحوها ، لا يكادون يصدّقون أنّ كلّ هذا قد يحدث بين عشية وضحاها..بينما كان التميمي يحضن والده أمامه على جواده ..كما يحضن والد ما ولد.. دون أن تكفّ عيناه عن خديه سَيْلَيْهما..

obeikandi.com

الحلقة الثلاثون

المشهد الأول :

نثرت رياح الصحراء ونسائمها أخبار انتصار العرب على الفرس .. وزاد الناس في تلك الأخبار وأنقصوا منها ، بما تشتهيه أنفسهم من الزيادة والنقصان ..

ولم يكد مقاتلو الأحياء في الجيش يعودون إلى أحيائهم ، حتى نُسجت حولهم أساطير...

أمّا جميل التميميّ فقد سمّت به نساء مواليدهنّ في تلك الليالي ، في أحياء عدة..

كان المنضمّون إلى جيش العرب من القبائل والأحياء ، ينسلّون من الجيش العائد من المعركة،إلى أحيائهم، تباعا..

وهم أولاء مقاتلو بني تميم ، يقتربون من حيّهم،وقد ترامت أخبار عَوْدهم ، فخرج الناس يستقبلونهم بما يليق بهم..

oheikandr.com

كانت جموع الناس تنثر على العائدين من كلام الإكبار والامتنان ، ما يستقبله العائدون المنتصرون بهامات محنية من التواضع ، وعيون مشرقة من الفرح ..ووقف شيخ الحيّ ،الحُباب بن عمرو بن يربوع يوزّع كلمات الإطراء ، يسمّي شخصا بعينه حينا ، ويعمّم أحيانا..

وإلى جانبه وقفت البارعة والملكة الفارسية،تشرئبان إلى وجوه الفرسان ، تبحث إحداهما عن وجه ، والأخرى عن وجهين..

كان منظر الجيش مهيبا ، وزادت من هيبته هذه الصفوف الكثيرة من الأسرى ..

ولم يكن من الممكن للتميميّ أن يسمع صوت والدته ، إذ صاحت باسمه حين بَصُرَت به..فقد كانت أصوات كثيرة تتعالى هناك ..

obeikandi.com

لذلك رفعت البارعة يدها تشير بها ، مجتهدة في أن يراها ابنها الذي كان يحتضن أمامه هيكلا نحيلا نحيفا متعبا محطّما، يبدو كأنْ لا حياة فيه..
وما هي إلا ساعة ، حتى ترجّل الراكبون ، وانتشر المشاة ، وسيق الأسرى إلى ناحية يُسقَون ويُظلّلون ويُطعمون..وقد اختلطت مشاعر متناقضة في قلوب الناس نحوهم ، بين حقد قديم دفين ، وبين واجب القيام بحق الأسير..
واختلى كل محبّ متلهّف أتعبته ليالي الانتظار،بعائدٍ له ، يعانقه ويشمّه ويتأمله ويقلّب وجهه بين يديه كقمر، ليقرأ عينيه..
وكان الأمر أشبه بيوم عيد أو بعرس كبير ، يغرق الحيّ في فرحه الغامر ، مغتسلا من حزنه وخوفه لسنوات...

المشهد الثاني :

obeikandl.com

رافق أحدُهم ملكةَ فارس إلى خيمة للضيافة بجانب خيمة شيخ الحيّ ، وكان التميمي وجدّه الحباب قد طلبا حضورها..

وبدت المسافة للملكة طويلة متعبة ، أحرقت أعصابها واستنفرت الكثير من هواجسها ..

فلمَ قد يطلبها التميميّ في تلك اللحظة ؟ وهل سيلحقها بأسرى الفرس ، يسري عليها ما يسري عليهم ؟ أم أنّ هناك أمرا آخرَ أشدّ ، كأن تكون عائلتها قد قضت في المعارك ، وقد طلبها ليخبرها ويواسيها..؟

كانت الاحتمالات السوداء تتكاثر في رأس المرأة وهي تشق طريقها إلى خيمة الضيافة في تلك اللحظة..

واستأذن مرافقها ، فأذن له شيخ الحيّ في الدخول،ودخلت خلفه ، ممتلئة البآبئ بهواجس السوء..

obeikandi.com

وكم كانت دهشتها كبيرة، حين أبصرت والديها،وأختيها ، وأخاها ، يجلسون في ناحية من الخيمة ، بينما يجلس زوجها الملك شيرْزاد ، في ناحية أخرى..

وتسمّرت المرأة ، ويبست في مكانها كنخلة ميتة..واتسعت عيناها ..وانهمرت الدموع من عينيها سيولا..وقالت بعد أن عقد المشهد لسانها للحظات :

- أمّي ..أبي .. واندفعت إلى أفراد أسرتها ، تملأ بهم ذراعيها اللذين فتحتهما ، كما تفعل يمامة تحمي صغارها من حدأة..

وساد الصمت احتراما لكل تلك العيون التي كانت تذرف .. قبل أن يشق ذلك الصمتَ كلامُ الشيخ الحباب وهو يقول :

- هي ذي الأيام ، تُباعِدُ وتَجْمع ..

ولم يقاطع الشيخَ الحبابَ ، غيرُ البارعة ، وهي تندفع في لهفة وخوف إلى داخل الخيمة ، تبحث

obeikandl.com

بعينيها عن راوند ، وقد ساورتها ظنون السوء،بعد أن بلغها أنّ التميميّ قد طلبها ، وقد يكون ذلك لأجل أن يلحقها بالأسرى..

واستقبل التميميّ والدته ، يطمئنها ، ويستفسر منها عما جاء بها ، فتقول :

- روحي لروحها الفداء ، ولن يحزّ قيدٌ معصمها إلا بعد أن يحزّ معصمي..

وجرت الملكة إلى صدر البارعة ، تلقي بنفسها عليها، محتمية..

واستأنف شيخ الحيّ كلامه ، يقول :

- وراوند ، امرأة عربية ، وهي مِنّا دمًا ونَسبا ، لكنها أيضا ملكة فارسية، وهي مخيّرة اليوم بين زوجها شيرْزاد ، وبين عائلتها التي كانت تعيش تحت نير الظلم والاضطهاد ككل العرب في بلاد فارس..فإن اختارت زوجها الملك ، فقد اختارت ما يسري به عليها حكم الأسر .. وهي وهو سيان .. وإن اختارت

obeikandl.com

أسـرتها،فإنّ الـذي يسـري عليها هـو مـا يسـري علـى أسرتها، من الضيافة والحرية والإكرام ..

ووقفـت راونـد صـامتة تقلّـب وجهها بـين الملـك شيرْزاد،وبين أبويها وإخوتها..وفاجأها التميمـيّ وهـو يقول لجده الحباب في دهاء :

- أنا أرى يا جدّي أن نُرجع الملكة إلى زوجها دون إذنها ولا رأيها، وذاك هو الأصل .. إذ ليس من العدل أن تكون امرأة مع رجل حين يكون ملكا ، ثمّ تتركه وترغب عنه وتختار غيره ، حين يصير أسيرا.. فأين الوفاء في ذلك كله ؟

ورمقت راوندُ التميميَّ بنظرة من نار ، وكادت عيناها تفترسانه غضبا وحنقا.. ولعله شَعَر بذلك دون أن يلتفت إليها أو ينظر إلى وجهها..

وتدخلت البارعة لتقول :

- أي قسمة ضيزى هذه ؟

وقاطعتها راوند غاضبة تقول في شموخها المعتاد، وهي تشير إلى زوجها الملك، ثمّ إلى أهلها:

- وهو يدري ..وهم يدرون ، أنّني كنت قالية له،كارهة للزواج منه ، متنائية عنه ما استطعت ..وهو يدري وهم يدرون أنني حاولت الانتحار مرتين ، هروبا من عالمه ، ومن ظله .. والحرائر لا يُشترينَ بالتيجان ولا بفصوص المرجان ..وقد آن أوان مصارحتكم بسرّ، يعرفه هو وأعرفه أنا .. وكان أرسل إليّ رسولا منه،يسهّل لي الهروب والعودة إلى بلاد فارس، وكان أن جاءني ذاك الرسول مع الكاسر بن حيي، حين كنا في هوازن..لكنني رفضت العودة..وما مثلي بالتي تأنس لقتّال الأطفال والنساء هذا..ولئن كان يجد بي من الجمال ما

obeikandi.com

يرغّبه في ، فإني لا أجد فيه شيئا واحدا يرغبني فيه ، فعلامَ أرجع إليه ؟

قالت البارعة ، وقد وجدتها فرصة لتجسّ نبض قلبِ الفتاة :

- وهل ستعيشين بقية عمرك كله هكذا ، بلا رجل تستكينين إلى ظله ؟

قالت الملكة وقد أدركت ببديهتها الحاضرة، ما كانت البارعة ترمي إليه:

- لا يروق لي رجال الدولة ، ولا المقاتلون .. يحتاج جمالي إلى أكثر من ذلك ..

وقالت البارعة بمكر:

- إلى قصائد شعر ؟

وأشاحت راوند مغاضبة ، بينما همس والدُها لوالدتها :

- لم أفهم شيئا .

وأجابته زوجته ، وهي تبتسم ابتسامة مكر:

obeikandl.com

أما أنا فقد فهمت كل شيء ..

قالت والدة راوند ذلك ، وألقت نظرة على التميميّ تتفحصه بإعجاب..

المشهد الثالث :

مساءً ، جلس ليل ودخان في طرف الحيّ ، وكان المساء جميلا خفيفا ، زاده جمالا ما يحسّ به الرجلان بعد أن شاركا في المعركة ضد فارس..

وكان ثالثهما في ذلك المجلس ، ملك الفرس،شيرْزاد.. وقد أمره ليل بأن يزجر بعيرا هناك، ثمّ يعود إليهما .. وقام الملك ففعل وعاد ..

وقال دخان لليل يؤنبه :

- ولماذا تعطيه أنت الأوامر ؟ ألست أنا شيخ الرعاة ؟ ألم يقل التّميمي إنّ أمور الرعي والرعاة كلها لي ، وأنا سيّد الرعيان ..؟

قال ليل :

obeikandl.com

- فعلا أنت سيّد الرعيان ..

والتفت دخان إلى الملك ، ومدّ له يده بذلك الدفّ الذي طالما دقّ عليه هو وليل في نوبات غنائهما،يناوله إياه ، يقول:

- أتعرف كيف تدقّ على هذا ؟

قال الملك :

- لا ..لا أعرف ..

قال ليل :

- تعرف فقط كيف تذلّ الناس وتطلب حرائر العرب وتقتل صبيانهم وتحرق قلوب الأمهات على أبنائهم وبناتهم ؟

وأضاف دخان وهو يوجه نصائحه الثمينة للملك الفارسي :

- ملك ولا تعرف كيف تنقر دفا ؟ يجب أن تعلم أنّ مما يقتضيه فنّ الرعي عندي أن تتعلّم الغناء وضرب الدفّ ..

obeikandl.com

وزاد ليل :

- والرقص ..

ونهره دخان قائلا :

- لا لا ..الرقص لك أنت أيها القنفذ المحروق ..

وأضاف دخان وهو يأخذ من الملك ذلك الدفّ،ويعطيه الدرس الأول في الطرب :

- اضرب عليه هكذا ، و قل :

فارسْ سقطتْ فارسْ

يا ذا الحظ التاعسْ

أبعدْ تاجكَ عنا ..

صرتَ حبيبي منّا

وقد بدا أنّ الملك يتعلّم بسرعة، وقد ناوله دخان الدفّ ، فأخذه يدقه ، وهو يقول :

فارسْ سقطتْ فارسْ

يا ذا الحظ التاعسْ

obeikandi.com

أبعدْ تاجكَ عنا ..

صرتَ حبيبي منّا

وكانت ضحكات دخان تملأ المكان ، بينما كان ليل يهتز راقصا على نغمات غناء ملك الفرس المعظّم..

المشهد الرابع :

لم يكن التميميّ يعرف أنّ والدته ، تراقبه مع زوجها البارق ، ومع الملكة راوند ..وقد كان ثلاثتهم قرب الخيمة ، في ذلك المساء ، حيث تهبّ على الحيّ نسائم تُنعش الروح وتُلهم الشِّعر وتشعل جذوات الشوق ..

كان التميميّ على جواده ، يقترب من الحيّ عائدا من أطرافه ، تطيّر النسائم ثيابه .. بينما كانت عيون والديه ترمقانه ، تكتحلان به ، وقال البارق لزوجته بصوت خافت ، وقد بدأ يتعافى:

obeikandi.com

- لقـد كبُـر وصـار مـلء العـين والقلـب .. ويـا لسعادتي به ابنا،وفخري به فارسا..

قالت البارعة :

- ويا لسعادتها به حبيبا شاعرا..

وكانت راوند ترمق التميميّ في تلك اللحظة ، في إكبار ممزوج بالعتب وهي تقول في نفسها:

- أيمكن لفتى في سنّ هذا ، أن يقلب الدنيا رأسا على عقب ، وأن يكسر إمبراطورية فارس ، وأن يعيد لهذه القبائل المتناثرة في الصحراء المتصارعة على دلو ماء أو عقال بعير ، مجدها وتآلفها.. ؟

وقرصتها البارعة ، إذ رأتها تغمد عينيها في التميمي ، وقالت لها :

- هل يعجبك ؟

قالت الملكة ، في اضطراب:

- ماذا ؟

obeikandl.com

قالت البارعة بمكر :

- المساء ..

وأشاحت الفتاة بحركة ثائرة عنيفة ، بينما قال البارق لزوجته :

- ومن هذه الحسناء الفاتنة يا بارعة ؟

قالت البارعة :

- حبيبة ابنك ، وزوجته قريبا .. وما أعظم حظه وقد ساقت له الأقدار أجمل ما رأت عيون الناس بشهاداتهم..

وتبادلت المرأتان نظرتين سريعتين ، وأطرقت راوند إلى الأرض ، وهي تبتسم ابتسامة لو وزعت على الصحراء لاخضرّت..

وكان الانتهاء منها ، ضحى الاثنين 26 رمضان 1436 هـ

الموافق لـ 13 تموز – جويلية 2015 م

بعد 26 يوما من بداية كتابتها

obeikandl.com

obeikandl.com

الفهرس

الحلقة الأولى 05
الحلقة الثانية 21
الحلقة الثالثة 35
الحلقة الرابعة 45
الحلقة الخامسة 63
الحلقة السادسة 81
الحلقة السابعة 99
الحلقة الثامنة 113
الحلقة التاسعة 127
الحلقة العاشرة 139
الحلقة الحادية عشرة 151
الحلقة الثانية عشرة 165
الحلقة الثالثة عشرة 179

obeikandi.com

الحلقة الرابعة عشرة 193
الحلقة الخامسة عشرة 203
الحلقة السادسة عشرة 213
الحلقة السابعة عشرة 223
الحلقة الثامنة عشرة 233
الحلقة التاسعة عشرة 245
الحلقة العشرون 255
الحلقة الحادية والعشرون 267
الحلقة الثانية والعشرون 281
الحلقة الثالثة والعشرون 291
الحلقة الرابعة والعشرون 307
الحلقة الخامسة والعشرون 323
الحلقة السادسة والعشرون 337
الحلقة السابعة والعشرون 351
الحلقة الثامنة والعشرون 361
الحلقة التاسعة والعشرون 379

obeikandi.com

الحلقة الثلاثون 397
الفهرس 413

obeikandl.com